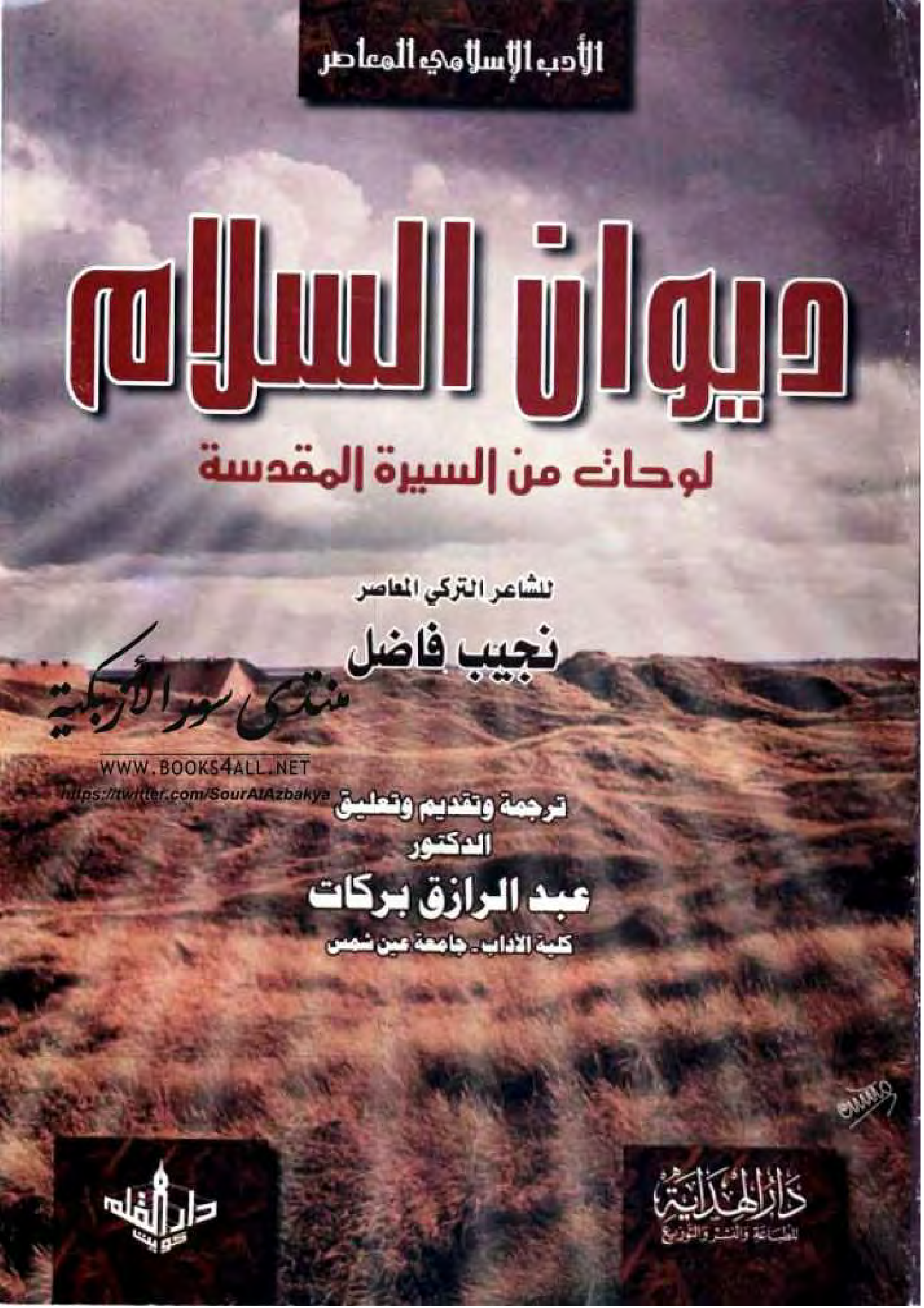


الأدب الإسلامي المعاصر

ديوان السلام

لوحات من السيرة المقدسة

للشاعر التركي المعاصر

نجيب فاضل

ترجمة وتقديم وتعليق
الدكتور
عبد الرازق بركات
كلية الآداب - جامعة عين شمس

دار القلم
الكويت

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

الأدب الإسلامي المعاصر

ديوان السلام

لوحات من السيرة المقدسة

للشاعر التركي المعاصر

نجيب فاضل

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتور

عبد الرازق بركات

كلية الآداب - جامعة عين شمس

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٦ / ٩٧٦٣

فاضل، نجيب
ديوان السلام : لوحات من السيرة المقدسة / لنجيب فاضل
ترجمة وتقديم وتعليق : عبد الرازق بركات .
ط٢ - القاهرة : دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٦
١٥٢ ص؛ ١٧ × ٢٤سم . (الأدب الإسلامي المعاصر)
تدمك : ٤ - ٧٦ - ٥٥٠٢ - ٩٧٧
١- الشعر الديني
٢- الشعر التركي
أ - بركات، عبد الرازق (مترجم، مقدم، معلق)

أولاً

تقديم

أ- الأستاذ

ب- السلام

أ - الأستاذ :

في حياة كل أمة نفر قليل من مفكريها ومبدعيها يتحملون مسئولية إنهاض أمتهم وتوجيه حياتها الفكرية والاجتماعية نحو الوجهة الراشدة ، وتراهم يبذلون في سبيل تلك الغاية السامية ، أموالهم ، وأعمارهم ، وأرواحهم ، مستعذبين في ذلك كل صنوف البلاء ، والشقاء بنفس صابرة راضية ، من هؤلاء النفر المفكر والشاعر والأديب التركي المعاصر نجيب فاضل (١٩٠٥-١٩٨٣م)، «الذي يلقبه الأدباء، والمثقفون الأتراك بلقب "Üstad" بمعنى الأستاذ، وهو لقب يطلقه الأتراك على المفكرين ، والمبدعين الكبار، والمميزين من الدعاة » [(١)] ويطلقون عليه كذلك لقب «سلطان الشعراء»، حيث تجتمع في شعره روعة البناء الفني، ونبل القضية، وشرفها، فشعره بحق مثل للفن الرفيع [(٢)].

والواقع أن هدف ذلك التقديم ، ليس التعريف بحياة نجيب فاضل، ومكانته في الأدب التركي المعاصر. فذلك أمر توفر على دراسته بعض الأساتذة[(٣)] بل هو محاولة متواضعة لإلقاء مزيد من الضوء على عالم نجيب فاضل الفكري والنفسي تتسم بالإيجاز والتركيز على بعض الجوانب الخفية في حياة نجيب فاضل .

وعادة ما تكون البداية من الجذور وسنوات النشأة الأولى ، وأول ما نقع عليه في ذلك هو أن « أحمد نجيب فاضل » المولود في ٢٦ مايو عام ١٩٠٥م قد ربي في قصر جده « حلمي أفندي » رئيس محكمة الجنايات والاستئناف - في

(1) Erdem Bayazit: Ustad, mavara, 80-81-82; Temmuz, Ağustus,Eylül, 1983, S. 47.
(2) Mukabil özyörük: Şâirler Sultani: a.e.; S.248.
(٣) حصلت الدكتورة / عزة الصاوي ، على درجة الدكتوراة في أدب نجيب فاضل عام ١٩٨٣م وكان عنوان رسالتها : «الاتجاه الإسلامي في أدب نجيب فاضل قيصه كورك» كما ترجمت له مسرحية «خلق إنسان». كما عرف به د. محمد حرب في كتابه «الأدب التركي الحديث والمعاصر» (القاهرة ١٩٧٥) وترجم له أيضا مسرحية «خلق إنسان»، ونشرتها دار الهلال عام ١٩٨٨م.

عهد السلطان عبد الحميد- تربية مترفة ، فقد عاش طفولته وصباه متقلبا في أحضان الثراء والنعيم، محاطا بالرعاية والحنان. وكان أبوه « فاضل » عصبيا متقلب المزاج، حاد الطباع إلى حد بعيد حتى سماه أهله « فاضل المجنون »، وسارعوا بتزويجه وهو ابن ستة عشر عاما بفتاة صغيرة في سن الرابعة عشرة بغرض تهدئة طباعه والحد من عصبيته [١] .

ولما بلغ «أحمد نجيب» الخامسة من عمره بدأ جده الحنون عليه يعلمه القراءة والكتابة ويحفظه القرآن الكريم . وكانت مخايل الذكاء والنجابة واضحة على الصغير، فما كاد يتم الحادية عشرة من عمره حتى قرأ بعض أعمال « فرجيل» و « غادة الكامليا » و « نجدت البائس » . وفي سن السابعة أدخله جده مدرسة فرنسية لكنه نفر منها فألحقه بمدرسة حكومية فنفر منها أيضا ، فألحقه بمدرسة أخرى حصّل فيها تعليمه الابتدائي [٢] .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التحق « أحمد نجيب » بمدرسة الفنون البحرية ودرس فيها خمس سنوات ، وفيها تعرف على زميله « ناظم حكمت » (١٩٠١ - ١٩٦٣م) الذي يكبره بعدة سنوات والذي صار فيما بعد أكبر شاعر اشتراكي في الشعر التركي الحديث ، وتتلمذ فيها على يد الشاعر « يحي كمال » و « أحمد حمدي آقسكي » و « حمد الله صبحي » . في ذلك الوقت أهدى إليه أستاذه « إبراهيم عشقي » هدية نفيسة شكلت أساساً قوياً في تكوين نجيب فاضل فيما بعد . كانت الهدية عبارة عن كتابين ، الأول هو « ثمرات الفؤاد » لصاري عبد الله أفندي ، والثاني هو « ديوان نقشي » ، وهما كتابان من كتب التصوف الإسلامي ، الذي ارتوت منه روح نجيب فاضل بعد تحوله إلى التدين، وفي تلك المرحلة تأتى له الإطلاع على الأدب التركي قديمه وحديثه .

---

(1) Akif inan : Hayatından çizgiler; a.g.e. , S. 6 .
(2) Akif inan : a.e , S. 6 .

لكن الفتى كان ملول النفس ، فما كاد يبلغ السنة النهائية بالمدرسة حتى كان الضجر يعصف بنفسه عصفا ، فترك استانبول وارتحل مع والدته إلى « أرضروم » ليقضي بها الشتاء مع خاله ، ثم رجع في الصيف والتحق بقسم الفلسفة بجامعة استانبول ، وهناك تعرف على نخبة من الأصدقاء تركوا بصمات واضحة على الحياة الأدبية والفكرية في تركيا مثل « أحمد قدسي تجر » و «أحمد حمدي تاكبينار » و « حسن علي يوجل» و « بيامي صفا » . وخلال دراسته بالجامعة بدأ ينشر شعره في بعض الصحف والمجلات الأدبية ، مثل صحيفة «إقدام » و« المجلة الجديدة » ، ثم نشر ديوانه الأول « بيت العنكبوت » بالحرف العربي عام ١٩٢٥م [١] .

نستنتج من ذلك أن ثقافة نجيب فاضل حتى وقت تخرجه في الجامعة كانت في معظمها ثقافية دينية صوفية، ثم مزجها في مرحلة الدراسة الجامعية ببعض روافد الفكر والفلسفة والأدب الغربي . فكان له من ذلك مزيج متنافر من الثقافة الدينية التقليدية التي تشكل حجر الأساس في حياة الأتراك منذ دخولهم الإسلام ، والثقافة الغربية العلمانية التي حسمت الصراع لصالحها في تركيا في بداية القرن العشرين ، ليجدها الفتى في سنوات تكوينه ووعيه هي الثقافة الرائجة في كل مؤسسات الدولة .

أما أهم السمات النفسية التي تميزه في تلك المرحلة فهي القلق النفسي والتقلب المزاجي ، فيبدو أنه كان ذا نفس ملول ، سريع السأم والتقلب ، ذلك ما يبدو من سرعة نفوره من المدرسة وتنقله بين كثير من المدارس وتنقله بين استانبول وأرضرورم، ولعل تلك النفس الملول من بين ما ورثه نجيب فاضل عن والده المعروف بمزاجه العصبي .

هذا عن المناخ الاجتماعي والنفسي والثقافي الخاص بنجيب فاضل في

---

(1) a.e. ,S. 7-8 .

سنوات ميلاد الوعي وصياغة الوجدان ، فماذا عن المنظومة السياسية والاجتماعية والثقافية العامة لتلك الحقبة التاريخية الخطيرة ، والتي أثرت بشكل كبير في صياغة وعيه ووجدانه ؟ إنها بعبارة مختصرة حقبة مخاض حضاري عسير أفرزت مسخا حضاريا شائها . فما كاد نجيب فاضل يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى أعلن «مصطفى كمال أتاتورك» قيام الجمهورية التركية ، وبعدها بعام ألغى نظام الخلافة الإسلامية ، وأعلن العلمانية وانطلق بحماس شديد ، يقطع كل ما يربط تركيا بالإسلام ؛ ظنا منه أنه بذلك يربطها بقافلة الدول الأوربية المتقدمة . فأقر النظام الرأسمالي ، وألغى التعليم الديني ، وفرض السفور على النساء، والقبعة على الرجال ، وحول بعض المساجد إلى متاحف، وحرَّم قيام أي حزب ديني ، واستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية، التي ظلت التركية تستعملها نحو سبعة قرون، وشكل مجمع اللغة التركية، وجعل مهمته الأساسية حذف الكلمات العربية والفارسية من المعجم التركي والاستعاضة عنها بكلمات من لغات أوربية أو تركية مهجورة، وفتح أبواب تركيا على مصراعيها للغزو الفكري حتى غدت كسفينة مثقوبة يتسرب إليها الماء من كل ناحية ، وضاعت منها هويتها ، فهي ليست إسلامية ولا لا دينية ، وليست أوربية ولا آسيوية ، وليست رأسمالية ولا شيوعية ، بل صارت ساحة للتباين العقائدي ، والأيديولوجي ، والطائفية ، وفوضى الانتماءات [1] .

في قلب تلك الفوضى ، كان على نجيب فاضل وجيله أن يختار طريقه؛ والواقع أنه لم تكن هناك ثمة فرصة طبيعية للاختيار؛ فملابسات المرحلة لم تترك له ولرفاقه من جيل الشباب ، أن يختاروا غير ما فرض عليهم . فقد وجد نجيب فاضل نفسه مدفوعا إلى الجموح واللهو في حياته الخاصة ، وإلى التمرد الميتافيزيقي والحيرة ، وهما سمتا ديوانه الأول « بيت العنكبوت » .

---

(1) Peyami Safa : Din –Inkilap –Irtlca , S. 45 .

ثم كان ابتعاثه إلى باريس عام ١٩٢٥م لدراسة الفلسفة ، فعاش هناك حياة بوهيمية غارقا حتى أذنيه في الخمر والنساء والقمار ، لكن نفسه الملول جعلته لا يطيق المقام في باريس ، حتى أطلق عليها اسم «مدينة الكابوس » فعاد بعد عام واحد إلى استانبول . وظل يعيش بها نفس الحياة البوهيمية التي عاشها في باريس[١]. وعمل في عديد من البنوك في أنقرة واستانبول ، وقام بالتدريس في كلية اللغة والتاريخ والجغرافيا ، وفي «الكونسرفتوار» وفي أكاديمية الفنون الجميلة باستنبول. وفي عام ١٩٢٨م أصدر ديوانه الثاني «الأرصفة» وهو استمرار لنفس تيار التمرد والغربة الذي ينتظم قصائد ديوانه الأول «بيت العنكبوت» ، وحينئذ صارت لنجيب فاضل شهرة واسعة كشاعر شاب ينتظره مستقبل كبير . وكان النقاد يفاضلون بينه وبين « ناظم حكمت » باعتبارهما أفضل شعراء جيلهما .

ولم تكن المفاضلة بين نجيب فاضل وناظم حكمت مفاضلة بين شاعرين مجيدين فحسب ، بل مفاضلة بين شخصيتين تتمتعان بمؤهلات نفسية تؤهلهما للقيام بدور فعال في السياسة والفكر كذلك . فكلاهما تسري فيه روح الفارس، ويحمل رأساً عنيداً ، ومزاجاً لا يقبل الانحناء والهزيمة ، ولديهما فوق ذلك ذكاء حاد. وللشاعر التركي «اردم بايزيد» لفتة طريفة في ذلك الموضوع حيث يذهب إلى أن (حاجة الإسلام في تركيا في عهد أتاتورك كانت ماسة إلى أن يدافع عنه ويجاهد من أجله شخصية أدبية وفكرية كبيرة مثل نجيب فاضل أو غيره من كبار الشعراء ، وكان لسان حال المسلمين في ذلك الوقت يشبه حال المسلمين في مرحلة الاستضعاف بمكة في بداية الدعوة حين قال رسول الله ﷺ : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين [٢]) .

ثم كان التحول الفكري الكبير في حياة نجيب فاضل عام ١٩٣٤م حيث

---

(1) Akif Inan : a.e. , S. 8 .
(2) Erdem Bayazit : a.a. , S. 48 .

كان لقاؤه بالسيد عبد الحكيم الأروسي - وهو شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية ، كانت له تكية بناحية من نواحي استانبول - لقد كانت الآثار الفكرية والروحية المترتبة على هذا اللقاء كبيرة جداً في حياة نجيب فاضل الخاصة ، وفي الحياة الفكرية والأدبية في تركيا بصفة عامة . يقول نجيب فاضل عن هذا اللقاء : (عام ١٩٣٤م كان لي لقاء مع شيخي ومرشدي الولي الكبير السيد عبد الحكيم الأروسي .. وما إن دخلت عليه وتأملت وجهه أحسست كأن شيئاً يهز أعماقي هزاً عنيفاً ، ولما سمعت كلامه تخيلته يمسك عصا سحرية يوجهني بها حيث يشاء .. كنت أجلس بين يديه كما يجلس المريد بين يدي شيخه ، وهي جلسة قال عنها أحد المتصوفة ينبغي على المريد أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي من يغسله .. لقد مسح الشيخ عن قلبي كل الأدران والحجب التي رانت عليه ، ومن أجله كتبت كتابي « هو وأنا » في العام نفسه .. وظلت صلتي بشيخي مدة تسع سنوات كنت خلالها دائم التخلف إليه ، حتى جاء عام ١٩٤٣م وأصدرت فيه العدد الأول من مجلتي « الشرق الكبير » فأخذت نسخة منه وأسرعت إلى تكية شيخي كي أدفعها إليه ، فلما دخلت لم أجد أحداً ، وأجابني صوت عجوز من الداخل أنهم قبضوا عليه بموجب قانون الإدارة العرفية ، فذهبت إلى قسم الشرطة وقدمت لهم نفسي وطلبت مقابلة شيخي ، وحاولت الإفراج عنه لكن القرار جاء بطرده إلى « أزمير » وحددت إقامته فيها بأحد الفنادق .. وبعد جهود ووساطات كثيرة صدر قرار بنقله إلى « أنقرة » حيث أقام بها في بيت خشبي متواضع مرض به مرضه الأخير ، وفاضت روحه في العام نفسه ودفن في إحدى القرى التابعة لمدينة أنقرة .. ولطالما زرت قبره مرات عديدة وبكيت أمامه بكاءً حاراً حزناً على فراقه ..) [1].

---

(1) Necip Fazil : Son devrin din mazlumları ; S . 303 / 319 , B.D. Yayınları , 3. B , Ist., 1974.

لقد تحول نجيب فاضل - على أثر ذلك اللقاء - إلى داعية إسلامي يجاهد بقلمه ونفسه دفاعاً عن الإسلام وقيمه الروحية السامية . وكانت كتاباته المختلفة بين شعر ومسرح ، ورواية ومقالة ، وأبحاث تاريخية ، ودراسات دينية تنهل كلها من معين الإسلام ، وتسعى نحو غاية واحدة هي إعلاء كلمة التوحيد وبعث صحوة دينية في تركيا تثور على ذلك الطور العلماني ، وتعيد لتركيا وجهها الإسلامي المشرق . أعانه على ذلك روح المغامرة والفروسية المتأصلة فيه طبعاً لا تطبعا . فلم تكن تعوزه الجرأة في كتابة أفكاره المعادية للكمالية ونشرها ، ولم يضعف أمام الضغوط ، والسجن الذي ذاق مرارته عدة مرات . فكان يخرج من كل منحة أشد وأصلب عوداً من ذي قبل ، لذلك لم يهاجر بدينه خارج تركيا كما فعل «محمد عاكف » من قبل حين هاجر إلى مصر فراراً بدينه . فلقد كان على اقتناع بأن رسالته الحقيقية هي أن يشعل شمعة في قلب ذلك الظلام الحالك .

وفي الفترة من عام ١٩٤٣م حتى وفاته عام ١٩٨٣م كتب مائة كتاب في مجال خدمة الدعوة والفكر الإسلامي ، وظل ينفق ماله - على قلته - من أجل إصدار مجلة « الشرق الكبير » أطول المجلات عمراً ، وأكثرها مصادرة ، وأكبرها أثراً في الأدب والفكر التركي المعاصر . وكانت كتاباته بها تحمل تحدياً صارخاً للعلمانية ، وتحرض الناس على الثورة عليها ، فقال في إحدى مقالاته : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) فسجن بسبب ذلك عاماً وبضعة أشهر، وبرغم كل ذلك كان حريصاً على إصدار تلك المجلة حتى فاضت روحه [١] .

لقد تميزت كتابات نجيب فاضل بالغزارة والتنوع وتشعب الموضوعات ، فله كتابات تاريخية قيمة ركزت على هدفين أساسيين هما :-

أ - الدفاع عن الدولة العثمانية باعتبارها آخر رموز الخلافة الإسلامية .

---

(1) Akif Inan : a.g.e. , S. 9 .

فقد كانت الكمالية تروج لتيار تطلق عليه « تتريك التاريخ » ، وكان غلاة الدعاة له من القوميين ينادون بإسقاط تاريخ الدولة العثمانية الذي امتد سبعة قرون من تاريخ الأتراك ، وذلك بحجة أن الدولة العثمانية لم تكن ذات أيديولوجية تركية قومية ، بل كانت تتبنى الأيديولوجية الإسلامية [1]، ودعاهم ذلك إلى تشويه تاريخها والانتقاص من شأن سلاطينها الكبار مثل (الفاتح ، والقانوني ، والسلطان عبد الحميد الثاني ، والسلطان وحيد الدين) ، فخصص نجيب فاضل بعض كتاباته التاريخية للدفاع عن تاريخ الدولة العثمانية وسلاطينها الكبار ، منها كتابه « السلطان العظيم عبد الحميد خان الثاني » الذي صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٦٥م في ثلاثمائة وعشرين صفحة ، ثم بلغ عدد صفحاته ستمائة وسبع صفحات، في طبعته الثانية عام ١٩٧٠م ، وظلت تزيد حتى بلغت ستمائة وثمان وثلاثين صفحة في طبعته الثالثة عام ١٩٧٧م وفيه يدحض كل الأباطيل التي شوهت تاريخ السلطان عبد الحميد الثاني ، كذلك كتابه « وحيد الدين خان ليس خائناً للوطن بل صديقه الكبير » الذي صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٦٨م ، وفيه ينفي عن السلطان وحيد الدين تهمة الخيانة الوطنية .

ب- التصدي لمحاولة تزييف تاريخ تركيا الحديث ، فقد دأبت الدعاية العلمانية على إضفاء هالة من التمجيد على زعماء حركة التغريب في الدولة العثمانية ، فأطلقت على قادة جمعية الاتحاد والترقي اسم « زعماء الإصلاح » كما أطلقت على دعاة التغريب في الفكر والأدب اسم « رواد التنوير ». فأخذ نجيب فاضل على عاتقه أن يفضح زيف تلك الدعاية ويميط اللثام عن حقيقة هؤلاء الزعماء المشبوهة . وكان من بين ما كتب في ذلك كتابه « الأبطال المزيفون » الذي يعد وثيقة إدانة لزعماء الاتحاد والترقي وكل دعاة التغريب .

(1) Prof . Dr.Mümtaz Tűrhan : Garplılasmanın Neresindeyiz ? S. 451 – 452 .

وله كذلك كتابات دينية عديدة خصص بعضها لسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والصحابة الكرام ، ومن بينها ديوان « السلام » ، وكتاب « حلقة النبي » ، وكتاب « ألف ضوء منير على مناقب الخلفاء الراشدين » ، وكتاب «أطلس الإسلام والإيمان » . وخصص بعضها الأخر لشرح وتحقيق وتلخيص بعض كتب التراث مثل كتاب « المواهب اللدنية » للقسطلاني ، وكتاب « رشحات عين الحياة » لعلي بن حسين الصافي ، وكتاب « الرابطة الشريفة » للسيد عبد الحكيم الأروسي . كما خصص بعضها الآخر لتخليد جهاد رواد الفكر والدعوة الإسلامية في تركيا المعاصرة مثل كتاب « شهداء الدين في العصر الحديث» (١) الذي خلد فيه جهاد السلطان عبد الحميد ، والشيخ سعيد، والشيخ أسعد أفندي ، والشيخ بديع الزمان النورسي ، والشيخ سليمان أفندي، والشيخ السيد عبد الحكيم الأروسي .

والواقع أن كتابات نجيب فاضل الفكرية المتعددة في مجال خدمة الدعوة الإسلامية بحاجة إلى دراسة علمية ضخمة تحلل أبعادها وتحدد روافدها وتربطها بحركة الفكر والمجتمع في تركيا المعاصرة . وهو أمر - رغم ما له من أهمية - ليس مكانه ذلك التقديم المختصر الذي يركز على إلقاء الضوء على عالم نجيب فاضل الفكري والنفسي كتوطئة يتهيأ القارئ بعدها للدخول إلى ديوان « السلام » .أما عن أدب نجيب فاضل - شعره ، ومسرحه ، ورواياته ، ومقالاته - فكله باستثناء ديوانيه الأولين « بيت العنكبوت » و « الأرصفة » أدب دعوة إسلامية ، يدعو إلى قيم الإسلام النبيلة ، ويبشر بمستقبل زاهر للإسلام ، ويستحث الأتراك بخاصة والمسلمين بعامة على الثورة على ذلك الحاضر العلماني الممسوخ . ونسوق من ذلك بعض الأمثلة التي تعبر عن ذلك أصدق تعبير ، فهو القائل في ديوانه «الشقاء» معبراً عن حاضر تركيا العلمانية :

---

(١) عنوان الكتاب الأصلي : " Son devrin din Mazlumları ".

الأمر بيد الكفر ،
فإن تسأل عن الجهل ، قالوا هو العلم !
وإن تسأل عن السم ، قالوا هو الترياق !
الرحمة كلمة مجهولة ،
والرحمن اسم لا يعرف .
الكتب المقدسة رذيلة ،
والأخلاق رواية ممنوعة ! .
والتاريخ ضد الحقيقة ...(١)

فذلك هجوم صريح على العلمانية ، والهجمة « الكمالية» الشرسة على الإسلام ومقدساته . ومثل ذلك الهجوم لم يصدر عن شاعر أو أديب تركي قبل نجيب فاضل ، فهو الوحيد الذي كان يمتلك من العناد والجرأة ما يعينه على المغامرة ومواجهة الكمالية دون خوف . وليس أدل على ذلك من تعريضه بمصطفى كمال أتاتورك نفسه وتشبيهه بالصنم ، رغم وجود قانون يجرِّم الهجوم عليه ويعاقب مرتكب ذلك بالسجن ، فهو القائل :

وحياة كفار المرحاض ، بلا قضية ، بلا حقيقة ،
وصنم يقوم على قاعدة ، وروحي بلا قاعدة ! .
سياسة سجن ، وعلم عبد ، وفن فوضى ..
فآه أيها السحر المحقور ، والدولاب المسحور المرذول
قبعة ، وقفاز ، وقرد ، وانقلاب ! .(٢)

فذلك تعريض صريح بمصطفى كمال وتماثيله التي تملأ الشوارع والميادين ، ومؤسسات الحكومة في كل أنحاء تركيا . إنها أصنام للرجل الصنم الذي مسخ ظاهر الشعب التركي وباطنه بانقلابه وآثاره الدينية والثقافية والاجتماعية غير

(1) Necip Fazıl : cile , S. 308 – 309 .
(2) Necip Fazıl : a.e. , S. 287 .

الحميدة . ولعل بيته الذي يقول فيه :

كانت ظئري ، تخجل من ظهور أنفها ،

فكشفت ابنتي ما هو محرم على قماش الكفن ! [1].

يعد أفضل ما قيل في الشعر التركي المعاصر في وصف حالة التردي والانحلال الخلقي الذي تعيش فيه تركيا المعاصرة . فالمقابلة بين الماضي «ظئري» والحاضر « ابنتي » موحية ، بل مفجعة ! .

تلك الأمثلة القليلة من ديوان« الشقاء» قطرة من محيط أدب نجيب فاضل الإسلامي ، الذي نهل منه معظم شعراء الجيل الجديد - جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية - مثل «سزائي قراقوچ » خليفة نجيب فاضل ، و « عصمت أوزل » الذي كان شيوعيا حتى هداه نجيب فاضل إلى الإسلام ، و « أردم بايزيد » و « جاهد ظريف أوغلو » و « أبو بكر أرأوغلو » و « عاكف اينان » ، وغيرهم . فلا شك أن تيار الفكر والأدب الإسلامي المعاصر في تركيا مدين لنجيب فاضل وجهاده ، فقد خرج من عباءته جيل من المفكرين والأدباء الإسلاميين يتخذون من فكره وأدبه وجهاده مثلاً أعلى لهم .

ب - السلام :

صدرت الطبعة الأولى من ديوان « السلام » عام ١٩٧٣م ، ثم صدرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٨٢م . وهو يتألف من ثلاث وستين قصيدة تؤرخ لسيرة الرسول ﷺ من ميلاده حتى وفاته ﷺ بشكل يعتمد على التسلسل التاريخي الوارد في كتب السيرة النبوية .

ولعنوان ديوان « السلام » دلالة كبيرة تبرز فهم الشاعر لروح الإسلام وحقيقة رسالته ؛ فالإسلام هو دين الرحمة والسلام ، وهو دعوة للإخاء والمحبة

---

(1) Necip Fazıl : a.e. , S. 286 .

بين كل البشر على اختلاف أديانهم وألوانهم وأعراقهم . كأن الشاعر يريد أن يقول للناس جميعاً من خلال ديوانه : (إن الإسلام هو واحة المحبة والسلام بين البشر في ذلك العصر الدموي ، الذي لم ينقطع فيه نزيف الدم البشري يوماً واحداً ، فهيا إلى الإسلام يا من تبحثون عن السلام) .

أما عن دلالة تحديد قصائد الديوان بثلاث وستين قصيدة فإنها دلالة واضحة تعكس عميق حب الشاعر لرسول الله ﷺ فقد جعل عدد قصائد ديوانه مساوياً لعمر رسول الله ﷺ ، وذلك أنسب ما يكون لشاعر ينظم ديواناً عن سيرة الرسول ﷺ ؛ إذ ينبغي أن يكون العمل مستلهماً لسيرته العطرة في كل شيء .

وقد استغرق نظم نجيب فاضل للديوان نحو ثلاثة عشر عاما وتطلب منه مجهوداً كبيراً كما أوضح ذلك في مقدمة ديوانه : (لقد بدأت كتابة هذا الديوان وأنا محبوس في السجن عام ١٩٦٠- ١٩٦١م ، وكنت وقتها في حالة عصبية من الأسى النفسي ، وكانت درجة حرارتي شديدة الارتفاع يعجز الترمومتر عن قياسها . وبعد ذلك ظللت أقاسي ألواناً من الظلم والتعذيب حتى انتهيت منه في شهر رمضان عام ١٩٧٢م)[١] .

ثم يحدد الشاعر بعد ذلك ماهية ديوانه والغاية منه ، فيقول : (ذلك الكتاب ليس مولدا بل هو ملحمة وجد وهيام وحب عظيم لرسول الله ﷺ ... ولعنة الله على كل من يتخذ ذلك العمل وسيلة للكسب عن طريق استثمار العاطفة الدينية ... إن أريد له إلا أن تكون قراءته باعثاً للغيرة الدينية والفكر الديني الصحيح ... ورجائي أن يأتي يوم يكون فيه ذلك الكتاب هو الأساس الأول في الأدب التركي للعمل الإسلامي في المستقبل)[٢].

نستنتج من كلامه أنه يؤكد على أمرين هامين :

---

(1) Necip Fazıl : Esselâm , S. 5 .
(2) Necip Fazıl : a.e. , S . 4 – 5 .

الأول : عدم اعتبار ديوانه مولدا على غرار منظومات المولد الشهيرة في الأدب التركي العثماني . وذلك أمر نقلبه على وجوهه فيما بعد .

الثاني : رفضه اتخاذ ديوانه وسيلة للتكسب أو شكلاً من أشكال العبادة الطقوسية التي اعتادها الأتراك في المناسبات الدينية . فقد تحولت لديهم أكثر شعائر العبادة إلى طقوس وحركات شكلية بلا مضمون أو رصيد سلوكي عملي . إنه يريد لديوانه أن يكون فتيلاً يشعل الصحوة الدينية في نفوس الناس ضارباً لهم المثل الأعلى في الجهاد والصبر من سيرة رسول الله ﷺ .

أما دعوة الشاعر إلى عدم اعتبار ديوانه مولداً فباعثه عليها أنه كان يرى أن الاحتفال بالمولد النبوي بدعة ، وأن مولد سليمان چلبي رغم شهرته لا يخلو من مطعن [1]. وظاهر دعوته يوحي بأنه لم يتأثر بأي من منظومات المولد الكثيرة في الأدب العثماني ، والتي يبلغ عددها نحو مائتي مولد ، ويأتي على رأسها مولد سليمان چلبي « وسيلة النجاة » الذي نظمه عام ٨١٢ هـ / ١٤٠٦م ، وتوجد منه خمسون نسخة مخطوطة في مكتبات استانبول ، وله ذيوع كبير في أوساط الشعب التركي ، ويتلى ملحناً في المناسبات والأعياد الدينية [2].

فالواقع أن مولد سليمان چلبي له قداسة دينية عند الأتراك تجعلهم يجعلونه رائعة من روائع الأدب التركي على مر العصور [3] وبرغم ذلك لم يتخذه نجيب فاضل مصدراً من مصادر ديوانه ، وكان الظن به أن يعتمد عليه بشكل أساسي بسبب عظيم مكانته وكبير شهرته. ونستطيع أن نقيم الدليل على ذلك باستعراض موضوعات مولد سليمان جلبي التي جاءت وفق ذلك الترتيب :

١- مناجاة : وفيها يثني على الله عز وجل بكل ما هو أهل له .

---

(1) Necip Fazıl : a.e. , S. 5 .
(2) Neclâ Pekolcay : Islâmi türk Edebiyatı , S. 234 – 235 .
(3) Ord. Prof. M. Fuad Köprülü : Türk Edabiyatı Tarihi ; S. 359 .

٢- نور النبي : حيث يفيض الحديث عن نور رسول الله ﷺ وانتقاله بين الأنبياء باعتباره أول مخلوقات الله وسبب وجودها .

٣- ميلاده ﷺ حيث يتحدث عن الخوارق التي صاحبت ميلاد رسول الله ﷺ .

٤- مدح الرسول ﷺ .

٥- ميلاده ﷺ .

٦- معراجه ﷺ .

٧- معجزاته ﷺ .

٨- هجرة الرسول ﷺ .

٩- ندم : حيث يبدي الشاعر ندمه على تفريطه فيما مضى ويرجو الله المغفرة .

١٠- نصيحة : حيث يدعو القارئ إلى التوبة والتخلق بخلق رسول الله ﷺ .

١١- وفاته ﷺ .

١٢- مرضه ﷺ .

١٣- عند وفاته ﷺ .

١٤- خاتمة: وفيها رثاء لرسول الله ﷺ، وذم للدنيا، ودعوة للتأسي بالرسول ﷺ.(١)

فالظاهر من موضوعات مولد سليمان چلبى أنه لم يجعل نظم سيرة رسول الله ﷺ مرتبة ومفصلة ، هدفاً من أهداف مولده ، ومن ثم تناول بعض فصول السيرة الشريفة فقط ، وهي ميلاده ، ومعراجه ، ومعجزاته ، وهجرته ، ومرضه ووفاته ﷺ بشكل لم يلتفت فيه إلى الترتيب المنطقي والتسلسل التاريخي للأحداث فهو يتحدث - مثلاً - عن وفاة رسول الله ﷺ ثم يعود فيتحدث عن مرضه ، وذلك أمر يفتقر إلى المنطق السليم .

كما أنه خصص ما يقرب من ربع منظومته للحديث عن موضوعات جانبية ، مثل المناجاة ، والندم ، والنصيحة ، فهذه الموضوعات مقحمة على

(١) د/ حسين مجيب المصري : المولد الشريف ، ص٥١ ، وما بعدها .

الغرض الأساسي لمنظومة المولد بحيث لو حذفت منها لكان ذلك أجدى في استمرار تدفق عاطفة الشاعر في غرضه الأساسي . بيد أن للشاعر عذراً في ذلك ، فقد كان من عادة الشعراء في عصره أن يستهلوا منظوماتهم بالمناجاة والمدائح النبوية ، وأن ينثروا خلالها كثيراً من قصائد الندم والتوبة والنصيحة ، والغزليات الصوفية .

فإذا كان ذلك حال أشهر مولد في تاريخ الأدب التركي ، فإنه ليس من المبالغة أن نزعم أن ديوان «السلام» لنجيب فاضل هو المعالجة الشعرية الوحيدة في الأدب التركي - قديمه وحديثه - التي عالجت السيرة النبوية وفق منهج دقيق تعتمد على التسلسل التاريخي ، وتتسم بالإحاطة بكثير من تفاصيلها التي وردت في كتب السيرة والمغازي . والواضح أن نجيب فاضل اعتمد اعتماداً مباشراً على كتب السيرة والمغازي ، وهي كتب سبق أن ترجمت إلى التركية ، وبخاصة «سيرة ابن هشام » فقد ترجمت أكثر من مرة إلى الفارسية والتركية [1] . ولكي نؤكد صحة ذلك الزعم سنذكر تلك القائمة بقصائد الديوان وموضوعاته :

١- التاريخ : وفيها يتحدث عن عام الفيل وهو عام ميلاد الرسول ﷺ ، حيث هجم أبرهة بجيشه على مكة ليهدم الكعبة، وفرت قريش إلى شعاب الجبال، فدافع الله عن بيته ، وخر الفيل ، وأرسل الله على جيش أبرهة طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فهلكوا عن آخرهم .

٢- الزمان : وفيها يذكر أن ظلمات الشرك في ذلك الزمان كانت تضرب أطنابها في كل شيء . ثم يذكر بعض بشائر ميلاد الرسول ﷺ مثل تصدع إيوان كسرى ، وجفاف بحيرة ساوة ، وأن كل شيء في ذلك الحين كان

(١) د/ حسين مجيب المصري : في الأدب العربي والتركي المقارن ص ١٨٧ .

ينتظر ميلاد الرسول ﷺ بفارغ الصبر .

٣- بيت في مكة : وفيها يتحدث عن تواضع البيت الذي ولد فيه الرسول ﷺ وبساطته . ثم يشير إلى ما جاء في كتب السيرة من إحاطة الملائكة بالسيدة آمنة ومخاطبتها لها عند حملها بالرسول ﷺ.

٤- الميلاد : وفيها يتحدث على لسان السيدة آمنة وهي تصف لحظات المخاض، وتروي ما قالته لها الملائكة والحور عند وضعها للرسول ﷺ .

٥- النور : وفيها يتحدث عن أزلية النور المحمدي وانتقاله بين الأنبياء حتى تجليه في الرسول ﷺ ، ولعل هذه القصيدة هي الوحيدة في الديوان التي يمكن أن يكون نجيب فاضل قد تأثر فيها بما ذكره سليمان حلبي في مولده عن نظرية النور المحمدي .

٦- ذاك الصباح : وفيها يتحدث عما فعله بعض أحبار اليهود صبيحة ميلاد الرسول ﷺ.

٧- المرضعة : وفيها يروي قصة رضاعة السيدة حليمة السعدية للرسول ﷺ وبعض بركاته وإرهاصات نبوته التي ظهرت حين أخذته ورجعت به .

٨- البادية : وهي تتمة للقصيدة السابقة في بيان ذكر إرهاصات نبوته التي ظهرت في بادية بني سعد .

٩- سحابة فوق رأسه : وهي عن خبر السحابة التي كانت تظل رسول الله ﷺ وهو في بادية بني سعد .

١٠- الصدر المشقوق : وهي عن خبر شق صدر الرسول ﷺ وهو في بادية بني سعد .

١١- موت الأم : وهي عن وفاة السيدة آمنة بنت وهب والرسول ﷺ طفل في السادسة من عمره .

١٢- الجد والعم : وهي عن كفالة جده عبد المطلب له بعد وفاة أمه ، ثم كفالة

عمه أبي طالب له بعد وفاة جده .

١٣- القافلة : وهي عن خبر السحابة التي كانت تظل رسول الله ﷺ حين خروجه في قافلة عمه إلى الشام .

١٤- الراهب بحيرا : وفيها خبر الراهب بحيرا الذي عرف خاتم النبوة في ظهر الرسول ﷺ وهو فتى في قافلة عمه إلى الشام ووصيته لعمه بالعودة به حتى لا يتعرف عليه يهود الشام .

١٥- وتمضي السنون : وفيها يتحدث عن رعي رسول الله ﷺ للأغنام ، ومعجزة مخاطبة الأشجار والأحجار له ، واشتهاره في قومه بالصادق الأمين ، وخروجه بتجارة السيدة خديجة إلى الشام .

١٦- خديجة الكبرى : وهي عن زواج رسول الله ﷺ بالسيدة خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وأولاده ﷺ منها .

١٧- الكعبة : وفيها يعطي لمحة عن تاريخ الكعبة وقداستها .

١٨- الحجر الأسود : وهي عن هدم الكعبة وإعادة بنائها ، واحتكام قريش إلى الرسول ﷺ في مسألة وضع الحجر الأسود بعد أن كادت الحرب تقع بينهم.

١٩- سوق عكاظ : وفيها يتحدث عن المكانة الأدبية والتجارية لسوق عكاظ ، ووقوف أحد الحنفاء بها وتبشيره بقرب بعثة رسول الله ﷺ .

٢٠- الفكر : وفيها يتحدث عن حب رسول الله ﷺ للخلوة والتأمل في غار حراء .

٢١- جبل حراء : وهي تتمة للقصيدة السابقة في وصف غار حراء ، وخلوة الرسول ﷺ به في شهر رمضان .

٢٢- النبي : وفيها يروي قصة نزول جبريل عليه السلام بالوحي لأول مرة على رسول الله ﷺ وهو في خلوته، وعودته إلى بيته خائفاً يقول : «زملوني... زملوني».

٢٣- الخوف : وفيها وصف لحالة الخوف التي سيطرت على الرسول ﷺ بعد

نزول جبريل عليه السلام عليه ، وما كان من تثبيت السيدة خديجة له وذهابها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لتستفسر عن حقيقة حال الرسول ﷺ ، وإخبار ورقة لها بأن ما جاءه هو الناموس الذي كان يأتي موسى عليه السلام .

٢٤- البرزخ : وفيها وصف لحزن الرسول ﷺ بسبب انقطاع الوحي عنه نحو ثلاث سنوات .

٢٥- الرسول : وفيها خبر نزول جبريل عليه السلام بالوحي بعد انقطاعه ، وتكليف الرسول ﷺ بإبلاغ رسالة التوحيد كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ ﴾ (المدثر ١ ، ٢) .

٢٦- الأوائل: وفيها خبر أول من دخل في الإسلام من الرجال والنساء والصبية.

٢٧- الدعوة : وهي عن سرية الدعوة في أول أمرها واتخاذ دار ابن الأرقم مركزاً لها .

٢٨- عمر مسلم : وهي عن قصة إسلام عمر بن الخطاب واستجابة دعوة الرسول ﷺ : (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين) .

٢٩- العذاب : وفيها يذكر الشاعر صوراً من تعذيب كفار قريش للمسلمين ، مثل بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر ، كما يصور أذاهم لرسول ﷺ ومحاصرتهم له ولقومه في شعب أبي طالب ، حتى أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة.

٣٠- المعراج : وهي عن قصة الإسراء والمعراج .

٣١- الهجرة : وهي عن هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة .

٣٢- الغار : وهي عن غار ثور الذي أقام به رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق حتى خف سعي الكفار في طلبهما .

٣٣- المدينة : وهي عن فرحة أهل المدينة بمقدم الرسول ﷺ واستضافة أبي

أيوب الأنصاري له في بيته ، وتأسيس الرسول ﷺ مسجد قباء ، ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، وتحويل القبلة إلى مكة .

٣٤- بدر : وهي عن غزوة بدر الكبرى .

٣٥- أُحد : وهي عن غزوة أُحد .

٣٦- المحرمات : وهي عن نزول تحريم الخمر ، والطيرة ، والميسر .

٣٧- اليهود : وهي عن خسة يهود بني قينقاع ، وخيانة يهود بني النضير ، وطردهم جميعاً من المدينة ، ثم تحريض اليهود لقريش ومن والاها من القبائل للانتقام من المسلمين .

٣٨- الأحزاب أو الخندق : وهي عن غزوة الخندق .

٣٩- نحو الفتح المبين : وهي عن عزم رسول الله ﷺ على الحج ، ومنع قريش له ، وصلح الحديبية ، وبيعة الرضوان .

٤٠- خيبر : وهي عن غزوة خيبر .

٤١- البلاغ : وهي عن السرايا والوفود والرسائل التي أرسلها الرسول ﷺ إلى الملوك والحكام .

٤٢- مؤتة : وهي عن غزوة مؤتة .

٤٣- إلى مكة : وهي عن مقدمات فتح مكة ونقض قريش للعهد .

٤٤- الفتح المبين : وهي عن فتح مكة .

٤٥- حنين والطائف وتبوك : وهي عن غزوة حنين ، وغزوة الطائف ، وغزوة تبوك.

٤٦- الجهاد الأكبر : وهي عن مكانة جهاد النفس في الإسلام ، وإخبار الرسول ﷺ لأصحابه بأنه هو الجهاد الأكبر .

٤٧- المعجزة : وهي عن بعض معجزات الرسول ﷺ .

٤٨- الصفة الشريفة : وهي عن صفة الرسول ﷺ .

٤٩- السكينة : وهي عن فصاحة الرسول ﷺ وإعجاز بيانه .

٥٠- الصحابة : وهي عن خلق الخلفاء الراشدين (أبو بكر، عمر ، عثمان ، علي) ﷺ أجمعين .

٥١- أزواجه وآل البيت : وهي عن أزواجه الطاهرات وآل بيته الكرام .

٥٢- القرآن والحديث : وهي في بيان قداسة القرآن الكريم ، وإعجازه ، والحديث الشريف ومكانته في التشريع الإسلامي .

٥٣/ ٥٩- أما القصائد من الثالثة والخمسين حتى التاسعة والخمسين فهي ترجمة لمائة حديث ، وحديث شريف ، اختارها الشاعر من الحديث النبوي في موضوعات متفرقة ، وفي تقديري أنها تشكل انقطاعاً في تسلسل أحداث السيرة النبوية كما أنها لا تضيف جديداً للقارئ العربي ولهذا آثرت عدم إدراجها ضمن الترجمة .

٦٠- حجة الوداع: وهي عن حجة الوداع وبها ترجمة لبعض ما جاء في خطبة الوداع.

٦١- ذلك اليوم : وهي عن اشتداد الحمى على رسول الله ﷺ ، وما كان من إراقة الماء عليه ﷺ ، ثم خروجه إلى الصحابة وخطبته الأخيرة فيهم ، وشدة توعكه حتى فاضت روحه الشريفة .

٦٢- الله حيٌّ لا يموت : وهي عن حالة الأسى والجزع التي عصفت بقلوب المسلمين عند سماعهم خبر وفاة الرسول ﷺ ، وتهديد عمر بن الخطاب لكل من يقول إن الرسول ﷺ قد مات ، حتى جاء أبو بكر الصديق وخطب في الناس خطبته البليغة حتى استسلموا جميعاً لقضاء الله ، وهدأت ثورة عمر بن الخطاب .

٦٣- السلام : وفيها يتحدث الشاعر عن حبه لرسول الله ﷺ وحزنه على شهداء كربلاء ، ويسأل الله العفو والمغفرة .

مما سبق يتضح - بلا ريب - أن نجيب فاضل كان ينظم سيرة رسول الله ﷺ

شعراً حسب تسلسل أحداثها وبكل تفاصيلها . ويبدو أنه كان يضع ترجمة سيرة ابن هشام أمامه ، ثم يقرأ الموضوع ويستوعبه جيداً ، ثم يسخر كل طاقاته الإبداعية في صياغته في قالب شعري يتسم بالعذوبة والسلاسة والجزالة والفخامة معاً . ونضرب لذلك مثلاً قصيدته الأخيرة « السلام » التي تعكس عبقرية نجيب فاضل الشعرية وتحكمه في أدواته الفنية من جزالة الصياغة وفخامة اللفظ وعذوبة الموسيقى الداخلية والخارجية وروعة الصورة ، حيث يقول :

Gőklerden son ilâm :
Allah bir ; bir , islâm ..
Lâmelif , Eliflâm ;
Amanin ya Mevlâm !
Esselâm , Esselâm !

Ben Mecnun , θ Leylâm ;
Hasreti Kerbelâm ,
Ateşi incilâm .
Bâkisi hep melâm ..
Esselâm , Esselâm !

Dűşűnce iptilâm ,
Kelime heyûlâm .
Lısansız vaveylâm ;
Ne bir harf ; ne Kelâm ,
Esselâm , Esselâm !

فلا بدع - إذن - أن يقول نجيب فاضل ، إن إتمام ذلك العمل استغرق منه ثلاثة عشر عاما . فلم يكن شاعراً يهيم في عالم الخيال بقدر ما كان مؤرخاً للسيرة ومضمنا شعره نصوصاً من القرآن ، والحديث الشريف ، ومأثور كلام بعض الصحابة ، وذلك أمر يحتاج إلى دقة كبيرة ومجهود خارق حتى يخرج العمل بمثل تلك العذوبة الشعرية والأمانة التاريخية .

مراجع التقديم

أولاً : في العربية :

أ- كتب :

١) د/حسين مجيب المصري : المولد الشريف ، الأنجلو المصرية ١٩٨١م .

٢) د/حسين مجيب المصري : في الأدب العربي والتركي المقارن ، مطبعة الفكرة ، القاهرة ١٩٦٢م .

٣) د/ محمد حرب : خلق إنسان ، دار البلال ١٩٨٨م .

ب- رسائل جامعية :

١) د/عزة عبد الرحمن الصاوي : الاتجاه الإسلامي في أدب نجيب فاضل قيصه كورك ، آداب عين شمس ١٩٨٣م .

ثانياً : في التركية :

أ- كتب :

1) Ord. prof. M. Fuad Köprülü : Tűrk Edebiyatı Tarihi , ötűken Yayıneevi , 3 . B ., Ist ., 1981 .
2) Necip Fazıl : öile, B. D. Yayınları , 6. B.; Ist ., 1977 .
3) Necip Fazıl : Esselâm , B. D. Yayınları , 2. B.; Ist ., 1982 .
4) Necip Fazıl : Son devrin din . mazlumları , B . D . Yayınları ,32 . B.; Ist ., 1974 .
5) Peyami Safa : Din – lInkılâp – lrtica ; Ötűken Yayınevi , Ist ., 1971 .

ب- مجلات :

1) Mevara dergisi , sayı : 80 – 81 – 82 , 1983 .

ثانياً

ترجمة الديوان

وتعليقات عليه

التاريخ

(١)

قبل ألف وأربعمائة سنة ،
هجم على مكة أبرهة .
بجيش من الجند جرار ،
يريد بمكة الهدم والدمار .
جيش يغزو الصحارى ، كأنه سيل ،
يمشي في مقدمته فيل ..
وقريش ذات الشرف القديم ،
من نسل النبي إبراهيم [١]
فرت إلى الجبال من هول ما رأت ،
فالبيت بيت الله ؛ كذلك فكرت .
قالوا للبيت رب يحميه !
فخر الفيل من حينه ..

---

(١) مما لا خلاف فيه أن نسب رسول الله ﷺ ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما وعلى نبينا وسلم ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب – اسمه شيبة الحمد- بن هاشم – اسمه عمرو- بن عبد مناف – اسمه المغيرة- بن قصي – اسمه زيد- بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة – اسمه عامر- بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، من ولد إسماعيل بن إبراهيم .وقد قال رسول الله ﷺ : (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفي من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم . انظر : - شمس الدين الذهبي (تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام)، ج١ ، ص ١٨/ ١٩ . - ابن سعد (الطبقات الكبرى) ، ج١ ،ص٢٠ .

وطير الأبابيل ملأت من السماء أرجاءها ،
كأنما اتخذت فيها أعشاشها !
ولا ريب إن شاء الله القدير ،
أن يأكل الصقر عصفورٌ صغير ..
متناغمة هي المحيطات في أمواجها ،
والطير تحمل أحجاراً في مناقيرها ..
حلقت الطير فوق رؤوس العسكر ،
وقذفت كل جندي بحجر ..
فصاروا كعصف مأكول ، كأنها القيامة !
وكتب لمكة المكرمة السلامة ..
وصار « عام الفيل » اسم ذلك العام
قد كان قبل ألف وأربعمائة عام ..[1]

(١) من المتفق عليه بلا خلاف أن ميلاد رسول الله ﷺ كان عام الفيل ، وقد جاء في خبر ذلك العام في الذكر الحكيم في سورة «الفيل» . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ج١، ص٢٧ وما بعدها.

الزمان

(٢)

حتى ذلك اليوم كان الزمان ،
بكرة ملفوفة ،
ثم فكت خيوطها ..

النجوم في السماء سكرى ،
والأرض أغطش ليلها ،
غريبة ظلالها ..

الزمان بندول كله أسرار ،
متناقض الأطوار ،
حلزون لا أول له ولا آخر ..

سيف هو أو مقص ،
قطع اليوم في لحظة ،
كل شيء في ذلك اليوم له أول وآخر ..

في ذلك اليوم الأصنام تحطمت ،
والبحيرات غارت ،
وفي كل شيء ظهرت علامات ...[١]

---

(١) روى أنه لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وغاصت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، ورأى =

كل الموجودات هلكت ،
والقفار على الماء تحسَّرت ،
والكائنات كلها انتظرت ..

شيء ما سيكون ما كنهه ؟
الأرض ترسل الدعاء ،
إشارة للسماء ..

بيت ما في مكة ،
أجل إنه الغاية ،
غاية الغايات ..

=

الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها ، فلما أصبح كسرى أفزعه ما رأى من شأن إيوانه فصبر عليه تشجعا ، ثم رأى أن لا يستر ذلك عن وزرائه ومرازبته ، فلبس تاجه وقعد على سريره وجمعهم عنده ، قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ ، قالوا : إلا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم على ذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النار فازداد غماً إلى غمه .
انظر : شمس الدين الذهبي (تاريخ الإسلام) ج١ ، ص ٢٦ .

بيت في مكة

(٣)

في مكة بيت ،
من ألف بيت ..
ليس قصرا من المرمر ،
ولا إيواناً من البللور ..
في مكة بيت ..

في مكة بيت ..
الكذب حقيقة ،
والحقيقة خرافة ..
ذلك هو الزمان ،
في مكة بيت ..

في مكة بيت ..
مكة معبد أصنام ،
ومن يعبد الله
رموه بالجنون والأوهام ..
في مكة بيت ..

في مكة بيت ..
والأم ،
الملائكة حول رأسها ..

في مكة بيت .. (١)

في مكة بيت ..
آمنة تضع وليدها ،
وحيدها ..
وراءه الحجة ..
في مكة بيت .. (٢)

(١) يزعمون – والله أعلم – أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولي (أعيذه بالواحد من شر كل حاسد) ثم سميه محمدا ، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام . أنظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ج١، ص٩٨ .

(٢) ويروى أن آمنة قالت : لقد علقت به فما وجدت له مشقة ، وأنه لما فصل عنها خرج له نور أضاء ما بين المشرق والمغرب ، ووقع على الأرض معتمداً على يديه ، وقال عكرمة :لما ولدته وضعته تحت برمة فانفلقت عنه . قالت فنظرت إليه فإذا هو قد شق بصره ينظر إلى السماء . أنظر: ابن الجوزي (كتاب صفة الصفوة) ، ج١ ، ص١٥ .

الميلاد

(٤)

آمنة ، أرملة عبد الله المحزونة [١]
بلغت لحظة المخاض المنتظرة .
تقول : لم أشعر لحظة بألم ،
وسمعت صوتاً يتكلم :
ما أسعدك يا آمنة !
فأنت حبلى بنور الوجود !
وبُسط من خلفي جناح أبيض ،
وسقيت شراباً كأنه من جنة الخلد ..
ومسح عن قلبي الخوف واللأواء ،
كأنه صب السماء في إناء ..
وسلط فوق رأسي ذكاء ،
فعم الوجود الضياء ! ..
وهطل مطر النور ،فالبعيد قريب ،
ولاحت لي بلاد الشرق المهيب ..
سوارى إيران ، ومن الروم قبابها ،
هاأنذا بيدي أتحسسها ..
تحوطني حور حسان ،

(١) يرجح أن عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ توفى وهو حمل في بطن أمه ، ويقال إنه توفى بعد ما أتى على رسول اله ﷺ ثمانية وعشرون شهرا ، ويقال سبعة أشهر ، والأثبت أنه توفى وهو حمل . أنظر : ابن سعد (الطبقات الكبرى) ، ج١ ، ص٩٩ .

ما رأت مثلهن عينان ..
تحملن أحواض وأباريق عجيبة ،
أنفاسهن رقيقة رطيبة ..
وصوت صداه يذيب الجبل والحجر ،
يقول : ودعوا العدم أيها البشر !
جاء سبب الوجود ، ورحمة العالمين
ولِدَ محمد آخر المرسلين ..
ولِدَ يتيمي ، صحيحة هي الأنباء
فرفعت سبابتها نحو السماء .

النور

(٥)

هو نور مطلق منذ القدم ،
كان له وجود والدنيا عدم ..
ضرع آدم إلى الله لما غوى ،
أن يغفر له بحق نور المصطفى ..

في جبين آدم نور مبين ،
انتقل من بعده لأحد المرسلين .
وتجلت آيته بلا نقاب ،
لا يحجبها حرف ، أو ظرف ، أو حجاب

ثم انتقل النور الإلهي وسرى ،
لست أدري ممن لمن بين الورى ..
من إبراهيم وإسماعيل ،
وغيرهما ممن اجتبى ..

وظل ذلك النور كاللواء ،
يتناقل بين الأنبياء .
حتى بلغ صاحبه الأول ،
الذي ينتظره منذ الأزل .

ذاك النور سر يفوق الضياء ،
أظهر الموجودات في جلاء ..
بدونه الناس صم وعميان ،

وخراب ويباب كل البلدان ..

النبي الخاتم ، النبي الخاتم ،
جاء الآخر ، وهو الأقدم ،
خرج منه النور وإليه عاد ،
فأشرقت به الوهاد والنجاد ..[1]

---

(١) شاع في أوائل عهد الإسلام القول بقدم نور محمد ﷺ ، أو بعبارة أدق بقدم النور المحمدي ، وهو قول ظهر بين الشيعة أولاً ، لكن لم يلبث أهل السنة طويلا حتى أخذوا به . واستند الكل في دعواهم إلى بعض أحاديث يظهر أن أكثرها مدخول على الإسلام . منها أن النبي ﷺ قال :(أنا أول الناس في الخلق) ، ومنها :(أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر) ، ومنها :(كنت نبياً وآدم بين الماء والطين) ، فاستنتجوا من هذه الأحاديث ومن أمثالها أنه كان لمحمد ﷺ وجود قبل وجود الخلق وقبل وجوده الزماني في صورة النبي المرسل ، وأن ذلك الوجود قديم غير حادث وعبروا عنه بالنور المحمدي . وقد أفاضت الشيعة في الكلام عن هذا النور المحمدي فقالت إنه ينتقل بالزمان من جيل إلى جيل ، وأنه هو الذي ظهر بصورة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء ، ثم ظهر أخيراً في صورة خاتم الأنبياء محمد ﷺ . ويوافقهم في هذا بعض أهل السنة ، وأخذها عنهم الصوفية ، وأولهم الحسين بن منصور الحلاج ، والغزالي ، والجيلاني ، وابن عربي. وسميت عندهم بالروح المحمدي ، أو الحقيقة المحمدية .
انظر : أبو العلا عفيفي (نظرية الإسلاميين في الكلمة) ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول، مجلد ٢ ، ج١ ، ص٤٧ .
وقد وضع الحلاج الأصول الأولى لهذه النظرية في قوله : (أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم . ما كان في الآفاق وراء الآفاق ودون الآفاق أظرف وأشرف وأعرف وأنصف وأرأف وأعطف من صاحب هذه القضية وهو سيد البرية الذي أسمه أحمد ، ونعته أوحد ، وأمره أوكد، وذاته أوجد ، وصفته أمجد ، وهمته أفرد .
يا عجبا ما أظهره وأنظره وأكبره وأشهره وأنوره وأقدره وأبصره .. العلوم كلها قطرة من بحره ، الحِكم كلها غرفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول في الواصلة ، هو الآخر في النبوة .. أنظر الحلاج « الطواسين » ص ١٢/ ١٥ .

ذاك الصباح

(٦)

في ذلك الصباح ، وقف يهودي بباب قريش وصاح :

« أيها الأشراف ، هل ولد الليلة في قبيلتكم غلام ؟»

قالوا : لا نعلم ! ..

قال : فتشوا عن علامة في ظهره ! .

فبحثوا عنه ووجدوه ..

فتأمل اليهودي غلام النور : إنها الإشارة الإلهية !

وغمغم في حسرة :

« لقد خرجت النبوة من بني إسرائيل ،

لقد ضاعت ... لقد ضاعت !

ستكون لكم العزة من الشرق حتى الغرب ،

عزة ما لها مثيل ! »

وفي نفس الصباح ،

خرج يهودي في المدينة وصاح :

« لقد احترقنا وضعنا !

قد حان وقت الغروب ،

وآن للظلام أن يؤوب ،

وبزغ نجم في السماء : أحمد ..

إنها قيامتنا ! » (١)

---

(١) روى عن حسان بن ثابت قال : إني لغلام يفعة إذ سمعت يهوديا وهو على أطمة يثرب ،
=

المرضعة

(٧)

حليمة ، حليمة ، حضن الحبيب ،
مرضعة بني سعد ، من قفر رهيب ..
جاءت مع المرضعات إلى مكة ،
لتجد غلاما ترضعه ..
وقتئذ كان ذلك عادة ،
والصغير لدى المرضعة أمانة ..
كل المرضعات أخذت رضيعا ، وقرت عينها ،
إلا حليمة ، ظلت فارغة يدها ..
فقال : يبدو أن نصيبي ،
ذاك اليتيم الذي خلفته صاحباتي ..
وتروي حليمة ما حدث فتقول :
« تناولت الصغير بعطف ولين ،
وجدته مغمض العينين ..
لابساً ثوباً من الحرير الأخضر ،
وبدثار من الصوف الأبيض قد دثر ،
وطُيِّب بريح من المسك الأذفر ..

=

يصرخ: يا معشر يهود .. ، فلما اجتمعوا إليه قالوا : ويلك مالك ؟ ، قال : طلع نجم احمد الذي يبعث الليلة . انظر: - ابن هشام : السيرة النبوية ، ص٩٩ . - شمس الدين الذهبي : تاريخ الإسلام ، ص٢٣ .

فسترت وجهه من حسنه الوضاح ،
كأني أستر بكفي نور الصباح ..
وامتدت إليه يدي بغير مشيئتي ،
فاستيقظ متبسما وديعتي ..
وشع من عينيه بريق بلغ السماء ،
يبسم ، فكأنما تجري فيه دماء السماء ! .
وكانت له أهداب وطفاء ..
فقبلت بؤبؤ عينه النجلاء ..
ناولته ثديي ، فأخذ اليمين دون الشمال ،
وانطلقتُ به عبر سهول وجبال ..» (1)

(1) ورد في كتب السيرة أن حليمة السعدية قالت :(خرجت في نسوة نلتمس الرضعاء بمكة على أتان لي قمراء قد أدمت بالركب ، وخرجنا في سنة شهباء لم تبق شيئا ، ومعنا شارف لنا والله لم تبض علينا بقطرة ، ومعي صبي لن ينام ليلنا مع بكائه ، فلما قدمنا مكة لم يبق منا امرأة إلا عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه . وإنما كنا نرجو كرامة رضاعة من أبيه ، وكان يتيما . فلم يبق من صواحبي امرأة إلا أخذت صبيا غيري ، فقلت لزوجي لأرجعن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، فأتيته فأخذته .. فوالله ما هو إلا جعلته في حجري فأقبل عليه ثديي بما شاء من اللبن ، فشرب وشرب أخوه حتى رويا . وكان يلبس ثوبا من الحرير الأخضر، ودثر دثارا من الصوف الأبيض، وقام زوجي إلى شارفنا من الليل فإذا بها حافل ، فحلب فشربنا حتى روينا فبتنا شباعا رواء ، وقد نام صبيانا ..).
انظر : شمس الدين الذهبي (تاريخ الإسلام) ، ج1، ص32. وانظر مع اختلاف الألفاظ : - ابن هشام (السيرة النبوية) ، ج1، ص100/ 101. - ابن سعد (الطبقات الكبرى) ، ج1 ، ص111.

البادية

(٨)

أطهر من المطر ، هنالك الإنسان ،
وأنقى من القطرِ ، هنالك الإنسان ..
كأنما هبط من السماء إلى الأرض ، هنالك المقال ،
والنجوم فوق الرؤوس قناديل ..
والأفق ، كأنما خطه فرجار ،
والأرض طهور ، مبسوطة الإطار ..
هنالك كل شيء جلاء ، ونقاء ، وصفاء ،
وصريحة ، مجردة ، كل الآراء ..
ما أعمق الألوان ، والأنوار ، والأنحاء ..
تلك هي البادية :
رمال متموجة
وبذور ميتة
صارت وطنه ..

كانت الأتان متعبة ،
وضرع الناقة يابسة
فلما دخل البيت ،
دبت في كل شيء الحياة .

ثم ما أغرب ما جرى ،

البركة تترى،
والرزق يطغى ،
والقبيلة حيرى ..[1]

(١) تذكر كتب السيرة كثيرا من الكرامات للنبي ﷺ حين أخذته حليمة السعدية ، فتقول على لسانها :
(.. ثم خرجنا وركبت أتاني ، وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم ، حتى إن صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ويحك ! أربعي علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهي هي ، فيقلن: والله إن لها لشأنا. ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا ، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع .. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتان وفصلته ، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا ..
انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ص١٠١ .

سحابة فوق رأسه

(٩)

بنت حليمة ، الشيماء ،
كانت كظله في الصحراء ..[١]
بلا حدود فوقهما السماء ،
وغضبى فوقهما ذُكاء

مضت سنون ، وشب الصغير ،
ليس له في اللهو شروى نقير ..[٢]
اتخذ الخلوة جليسا ،
والغار والقفار أنيسا ..

وفي يوم قائظ غاب الصغيران ،
فخفق قلب حليمة الولهان .

---

(١) كانت ثويبة مولاة أبي لهب قد أرضعت رسول الله ﷺ أياما قبل قدوم حليمة بلبن ابن لها يقال له مسروح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، ثم أرضعته حليمة مع ولدها عبد الله بن الحارث ، وكان لها بنتان هما أنيسة بنت الحارث وجد أمه بنت الحارث وهي الشيماء . وكانت هي التي تحضن رسول الله ﷺ مع أمها . انظر : ابن سعد (الطبقات) ، ج١، ص١١٠/ ١١١ .

(٢) يروى أن رسول الله ﷺ كان محفوظا من لهو الجاهلية وأقذارها منذ صغره . فيذكر أنه ﷺ قال : (لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لا كم ما أراه ، لكمة وجيعة ، ثم قال شد عليك إزارك . فأخذته وشددته عليَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي ، وإزاري عليَّ من بين أصحابي . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ، ج١، ص١١٢ .

انطلقا يعدوان في الصحراء ،
وقلب أمهما عليهما هواء ..

ثم لاحا مقبلين ،
مستبشرين سعيدين ..
غريب أمر عودهما ،
وسحابة بيضاء فوقهما ..

قالت الشيماء : أنا وأخي مستظلان ،
فوق رأسينا جناحان .
في المراعي والوديان تنزهنا ،
وسحابة تحجب الشمس عنا ..

أجل ، كانت سحابة تظله ،
تتبع حركته وسكونه ،
كلا ، لم تكن سحابة يقينا ،
بل توجته السماء تتويجا ! .(١)

---

(١) أورد بن سعد خبر السحابة التي كانت تظل رسول الله ﷺ وهو في حضانة حليمة ، فذكر أن حليمة رأت غمامة تظله ، إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت ، فأفزعها ذلك من أمره ، وقدمت به إلى أمه لترده . انظر : ابن سعد (الطبقات الكبرى) ، ج١، ص١١٢ .

الصدر المشقوق

(١٠)

وفي يوم أقبل أخوه يعدو له صراخ وبكاء :
أماه ، أماه ، أسرعي ، فبعض الغرباء ،
أمسكوا أخي ، وطرحوه على ظهره ،
وجثموا فوقه ، وشقوا بطنه ..
ثم انخرط الصغير في البكاء ، بعد أن أبلغ أمه ..
في أحد أودية الصحراء ، كان ثلاثة من الرجال ،
كأنما خرجوا من مكمنهم في التو والحال .
ففزع الأطفال ، وانطلقوا يسابقون الهواء .
كان أحدهم يحمل حوضا ، بالثلج له امتلاء ..
لم يسألوه سؤالا ، ولم يكلموه كلمة ،
بل طرحوه وشقوا بطنه ..
كان طفل النور شاخصاً نحو السماء ببصره ،
ينظر إليهم باسترخاء بطرف عينه ..
فاستخرجوا من قلبه بريشة سماوية ،
مضغة جعلوها بالثلج مطهرة ..
ثم إلى مكانها أعادوها ، ومسحوا عليها وأخفوها ،
ثم شق أحدهم صدره وأخرج قلبه ،
وأراق بضعة قطرات من دمه .
ثم بخاتم من نور ختم عليه ،
وأعادوه مستقراً في موضعه ..

ثم أنهضوا برفق الصغير المبارك ،
لتفتح الأبدية له أحضانها ، وتبارك ..
فخافت حليمة من اليتيم الخارق ، وروعت ،
وإلى آمنة لترده أسرعت ..[1]

(١) ورد حديث شق صدر رسول الله ﷺ وهو في بادية بني سعد في صحيح مسلم كما أوردته كل كتب السيرة باختلاف يسير في ألفاظه ، مع زيادات طفيفة أحياناً ، وفحوى الحديث أن جبريل عليه السلام أتاه وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه وشق عن قلبه فاستخرج القلب ثم شق القلب فاستخرج منه علقة ، فقال هذا حظ الشيطان منك ، فغسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمَه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى ظئره إن محمدا قد قتل ن فاستقبلوه وهو ممتقع اللون . قال أنس (وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره ﷺ) .
انظر : شمس الدين الذهبي (تاريخ الإسلام) ، ج١، ص٣٣ .

صوت الأم

(١١)

ذهبت إلى المدينة آمنة ،
وطفل النور معها ..
وفي طريق عودتها امتقع لونها .
وبينما هي على الفراش مريضة ،
رأت رؤيا عجيبة :
أن ابنها هو النبي المنتظر ،
وأنه المرشد الأخير للبشر ..
ثم غلب عليها الأنين والجوى :
« كل حي يموت ، وكل جديد يبلى ،
سأموت .. ذلك حق ،
لكن اسمي سيبقى بين الخلق ..
سيبقى في صغيري ..
وداعا ! ..
إني أسمع صدى .. »
ورحلت وهي تنظر للفتى ،
قد اغتالتها يد الردى .. (١)

(١) يروى أن النبي ﷺ لما بلغ ست سنوات خرج إلى المدينة مع أمه آمنة بنت وهب إلى أخواله بني عدي بن النجار تزورهم به ، ومعه أم أيمن تحضنه وهم على بعيرين ، فأقامت به عندهم شهرا، ثم رجعت به إلى مكة ، فلما كانت بالأبواء توفيت آمنه بنت وهب ، فقبرها هناك ، فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليها مكة ، وكانت حاضنته مع أمه ، ثم بعد وفاتها .
=

وصار اليتيم بعد فقد أمه لطيما ..

فقال ملك:« لقد تركت حبيبك بلا صاحب يا ربي !»

فقال الله:« ليكون حبيبي صاحبي وحدي !»

ولا يكون لبشر فضل عليه،

وتلك منة من الله عليه ..

فأخذت أم أيمن الحبيب ،

وضمته إليها ..

الجهة ، الأرض المباركة ،

والطريق .. مكة ..

=

انظر : ابن سعد « الطبقات الكبرى» ج١، ص١١٦ .

الجد والعم

(١٢)

كانت أم أيمن رحيمة به ،
تدعوه «يا روحي ، يا وحيدي» وتحنو عليه ،
وهو أيضا كان يجلها ،
ويقول لها: أنت أمي الثانية ! ..

جده الآن يرعاه ،
يعيش في حماه ..(١)
يعلي شأنه في القبيلة ،
فهو يعلم شمس أرومته النورانية (٢)

كان في السادسة ، فصار في الثامنة ،
عندما مات جده ، إنها أشد عاصفة ..
فخرجت مكة تشيعه ،
كأنها بحر يتبعه ..

---

(١) من الثابت أن الرسول ﷺ انتقل إلى كفالة جده عبد المطلب بعد وفاة أمه ، فلما مات جده وعمره ثمان سنين ، أوصى به إلى عمه أبي طالب .

(٢) يروى أنه كان لعبد المطلب مفرش في الحجر لا يجلس عليه غيره ، ولا يجلس عليه أحد معه .. فجاء رسول الله ﷺ وهو غلام فجلس على المفرش ، فجبذه رجل مكي ، فقال عبد المطلب - وذلك بعد ما كف بصره - : ما لابني يبكي؟ ، قالوا له: إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه ، فقال : دعوا ابني يجلس عليه فإنه يحس من نفسه شرفا ما وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده . انظر : شمس الدين الذهبي « تاريخ الإسلام » ، ج١، ص٣٧ .

ثم صار لدى عمه أمانة ،
بيت جديد وحضانة ..
وخير ، ورفعة ، وبركة ..

العام عام جدب ، والدعوات حارة
فرفع نحو السماء سبابته ..
فتراقصت السحب في السماء ،
وصارت الأرض حوضا ، وفاضت السماء ..(١)

ومضت على تلك الحال أربع أو خمس سنين ،
وهو باسم الوجه ، خجول ، حزين ..
عيناه في الطرق انتظار ،
ما أطول طرق الأسرار ! .

---

(١) يروى أن قريشا أجدبت في سنة ، فاستسقت أبا طالب ، فقال : رويدكم زوال الشمس وهبوب الريح ، فلما زالت الشمس أو كادت خرج أبو طالب معه غلام – يعني النبي ﷺ - كأنه شمس دجن تجلت عن سحابة قتماء ، حوله اغيلمة . فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ، وبصبصت الأغيلمة حوله وما في السماء قزعة ، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق واغدودق وانفجر له الوادي ، وأخصب النادي والبادي .
انظر : شمس الدين الذهبي « تاريخ الإسلام » ج١، ص٣٦ .

القافلة

(١٣)

قافلة كبيرة ،
على الطريق تسير ،
فيها ألف بعير ..
جمال أم ألحان ،
وإن كانت من الحيوان !
جمل مقرعة ،
والسفر مشقة ..
والصحراء ثعبان ،
والجمل بهلوان ..
صبر يُمِر ،
وطوفان مستمر ..
ورود وردها ناري ،
الشمس لها بستاني ..
مطر جاف ،
وخبز مساف ..
وفي السراب قمر كبير ،
وخيمة وغدير ..
وفي السماء قوس ،
كله ألوان ..
ازرق ، واحمر ،

وأخضر ، وأرجوان ..

بالقافلة فتى ، نوره بدا ..

تحوطه الملائكة ،

من كل ناحية ..

وسحابة تظلله ،

تحجب الشمس عنه ..[1]

فانفرجي يا سماء ،

يا سقفاً بلا عمد ! ..

---

(١) يروى أن رسول الله ﷺ تعلق بعمه أبي طالب وهو خارج في قافلة له إلى الشام ، فأخذه معه . فكانت تظلله غمامة من بين القوم .. انظر : ابن هشام « السيرة النبوية » ، ج١، ص١١١ .

الراهب بحيرا [1]

(١٤)

وبينما قافلة عمه ،
إلى الشام متجهة ،
كان الراهب بحيرا واقفا أمام صومعته ،
قد فر من الناس ولاذ بخلوته ..

كان بحيرا على دين المسيح متعبدا ،
وفي أسرار الغيب متأملا مجتهدا .

رأوه قد خرج من خلوته ،
يدعو المسافرين إلى صومعته:
« لقد لقيتم من سفركم نصبا ،
فهيا إلى الطعام معا ..»

كانوا متعبين ظمأى وجوعى ،
فلبوا الدعوة سراعا .

وبعد الطعام كان بينهم خطاب ،
بين سؤال وجواب ..
وجاءت فرصة بحيرا للسؤال ،
فسأل عن دينهم والأحوال ..

---

(١) تكتب « بحيرا » و « بحيرى » بفتح الباء وكسر الحاء .

لكنه كان بالفتى مشغوفا ،
وأدرك أن به سرا كبيرا ..

فقال : أريد أن أرى ظهر الفتى ، تلك أمنيتي ،
فيا عمه هل تأذن لي ؟
فكشف قميصه ، فهاله ما رأى ،
إنه خاتم النبوة ، مرحى يا فتى ..

بحيرا من الذين بالأسرار عالمين ،
وهو للنبي المنتظر من المنتظرين ..

قال الراهب : ذلك هو المخلص الأخير ،
لا تكملوا الرحلة ، أمامكم شر مستطير ..
فالغيظ منه يأكل قلوب يهود الشام ،
بيعوا بضاعتكم هنا وعودوا بسلام ،

ففعلوا ما قاله الراهب ،
ورجعوا تظلهم السحب ..(١)

---

(١) أوردت كتب السيرة خبر الراهب بحيرا باختلاف في تفاصيلها . لكن القدر المشترك من القصة ثابت بطرق كثيرة لا يلحقها وهن. وقد رواه الطبري في تاريخه (٢-٢٨٧) ورواه البيهقي في سننه، وأبو نعيم في الحلية ، وانفرد الترمذي بروايته مطولا على نحو آخر ، ولعل في سنده بعض اللين . فقد قال هو نفسه بعد أن رواه : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي سنده عبد الرحمن بن غزوان ، قال عنه في الميزان له مناكير ، ثم قال : انكر مالك حديثه عن يونس بن أبي اسحاق ، في سفر النبي ﷺ وهو مراهق مع أبي طالب إلى الشام . وقال عنه بن سيد الناس : في متنه نكارة. انظر: د/ محمد سعيد رمضان البوطي «فقه السيرة» ص٥٣ .

وتمضي السنون

(١٥)

رجع الفتى على البعير مع عمه ،
وكان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره ،
الزمان ساقية تدور بالأعوام ،
فها هو ذا الفتى راعي أغنام ،
الرعي تاج الوجود ، ذلك هو القدر !
ليتعلم راعٍ الأغنام كيف يرعى البشر ! (١)
فالكل راعي ، والنبي ، والسلطان ، وشيخ القبيلة ، والرئيس
والناس قطعان ورعاة ، كما جاء في الحديث :
« كلكم راع ، فالمسلم راع »(٢)
ذلك هو الرباط في الإسلام ..
الرحلة الثانية إلى اليمن ، والسن سبعة عشرة سنة ،(٣)
الطريق طويل موحش ، والصحراء مهلكة ..
كانت كل ذرة تناجيه وتسلم عليه !
يا لعظمة ذلك الذي يراه ! .(٤)

---

(١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :(ما بعث الله نبيا إلا راعي الغنم) ، فقال : أصحابه وأنت ، قال ﷺ : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة. انظر: ابن الجوزي « كتاب صفة الصفوة » ص٢٣.

(٢) متن الحديث (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته)

(٣) لم يرد في كتب السيرة أن الرسول ﷺ خرج إلى اليمن .

(٤) يقال إن رسول الله ﷺ كان يفض إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجرة ولا شجرة إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا . وعن جابر بن =

الآن بلغ الحادية والعشرين ، والملائكة تحوطه ،
لكن لم يحن بعد وقت نبوته ..
خُلقه عظيم ، ولذلك لقبره الأمين ،
لم ير الناس مثله في العالمين ..
صادق ، لم يجر الكذب على لسانه ،
بَاسِم ، لكنه مشغول باله ..
فكره عميق ، كأنه سورة الأبدية ،
وأصغر من ذرة الرمل أمامه الكرة الأرضية .
يشمئز من الأصنام بفطرته ،
ويأنس دوما بوحدته ..
ثم خرج بتجارة للأرملة الغنية خديجة ،
ثم رجع من الشام ، والنتيجة :
ربح وفير .. ولكن ذلك لم يكن مرام خديجة ،
لقد أحبته حبا طاهرا تلك السيدة ،
ورأت في منامها من يقول لها :
تزوجي سيد الدنيا والآخرة ..(١)

سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن . انظر:ابن الجوزي « كتاب صفة الصفوة » ص٢٦.

(١) كانت خديجة - فيما يروى - إمرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ صدق الحديث، وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، ومعه غلامها ميسرة . وقد قبل الرسول ﷺ هذا العرض. فرحل إلى الشام عاملا في مالها ومعه ميسرة، فحالفه التوفيق في هذه الرحلة أكثر من غيرها، وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه في أمانة تامة ونبل عظيم، ووجد ميسرة من خصائص النبي ﷺ وعظيم خلقه ما ملأ قلبه. دهشة له، وإعجابا به، فروى ذلك لخديجة، =

خديجة الكبرى

(١٦)

كان الشاب الطاهر في الخامسة والعشرين ،
وخديجة الكبرى تخطو نحو الأربعين .
فقالت: « أتقبلني لك زوجا يا أمين؟»

فقال : نعم ، فخر الكائنات ،
وأقامت قريش للفرح حفلات .
واعتبرت مكة ذلك اليوم أسعد الأوقات ..

وكم من خطب عصماء ألقيت ،
وكم من ألقاب ورتب خلعت ،
وباسم الله الزيجة انعقدت ..

في بيت خديجة ، الأنوار استقرت ،
وفيه زيجة على الزيجات فضلت ،
وفيه الرؤيا الصادقة تحققت ..

ومن خديجة جاء أولاد الرسول ﷺ ،

فأعجبت خديجة بعظيم أمانته، ولعلها دهشت لما نالها من البركة بسببه، فعرضت نفسها عليه زوجة بواسطة صديقتها (نفيسة بنت منية) فوافق النبي ﷺ وكلم في ذلك أعمامه فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد، وتزوجها ﷺ وقد تم له من العمر خمسة وعشرون عاما ولها من العمر أربعون . انظر: ابن هشام (السيرة النبوية) ج١، ص١١٤/ ١١٥ .

زينب ورقية وأم كلثوم
وفاطمة البتول ..[1]
قلب خديجة هو قلب المصطفى ،
كل ما عداه لا ترى ..
ومن روحه ، روحها اجتلى .

شعور مرهف ، ويقين راسخ يطاول السماء ،
هي الأولى ،
أولى المسلمات ، وأولى النساء ،

الأولى في الرعاية ، والحنان ، والوفاء ،
خديجة الكبرى ، خديجة الطهر والنقاء ،
أعز أم لنا ، أعز كل النساء ..

(١) أولاده ﷺ من السيدة خديجة هم : القاسم - وبه كان يكنى ﷺ- والطاهر ، والطيب ، وزينب، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أما إبراهيم فمن مارية القبطية .
انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ، ج١، ص١١٥

الكعبة

(١٧)

الكعبة بيت الله ،
على الأرض ابتناه ..
من الغيب ضياء ،
يمحق الظلماء ..

عالم من نور ،
وسر مستور ..
بين عالمنا وعالمها ،
سر يحجبها ..

للسيماء سيماؤها ،
وآخر باب للمادة بابها ،
من الغيب إشارة ،
وبناء بلا هيئة ..

سيماؤها في الحقيقة ،
سيماء فريدة .
وعقب تلك الغريبة ،
أرض وصلاة ..

هي صورة الصور ،

وسر الأسرار ..
في الدنيا آخرته ،
والبشر تشيده ..

أول من بناها آدم ،
ثم الخليل إبراهيم ..
كل من يراها ،
يهتدي من بهاها ..[1]

---

(١) هناك كلام كثير حول بناء الكعبة ، يعلم الله وحده صدقه من كذبه . فيروون أن الله تعالى خلقها قبل أن يخلق شيئا من الأرض ، وأن الملائكة هي أول من بناها قبل خلق آدم ، ثم طافوا حولها بأمر الله تعالى . فلما هبط آدم عليه السلام إلى الأرض من الجنة ، قال له الله تعالى : اذهب فابن لي بيتا تطف به واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي . فأقبل آدم عليه السلام يطوي الأرض حتى انتهى إلى مكة ، فبنى البيت الحرام . ويزعمون أن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت في الأرض السفلى . فقذفت الملائكة فيه الصخر ما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا . وأنه بناه من خمسة جبال هي :(لبنان ، طور زيتا ، طور سيناء ، الجودي ، حراء) حتى استوى على وجه الأرض .. فلما بعث الله سبحانه وتعالى الطوفان ، درس موضع البيت في الطوفان حتى بعث الله تبارك تعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فرفعا قواعده وأعلامه ، ثم بنته قريش بعد ذلك . انظر : نهاية الأرب ، ج١، ص٢٨٧- ٢٩٠.

الحجر الأسود

(١٨)

وبعد عشر سنوات ، اجتاحت الكعبة سيول فدمرتها ،
وهدمت أساسها وحوائطها ..
فقالت قريش : هيا نعيد بناءها ،
وتلك مهمة طالما قاموا بها ..
للكعبة حرمة من عهد الخليل إبراهيم ،
رغم تغير دورها الجديد عن القديم ..[١]
فامتلأت بالأصنام قبلة التوحيد ،
ولم يذكر بها اسم المعبود ..
ثم اختلفوا حول الحجر الأسود ، بعد تمام البناء ،
وجردت السيوف لإراقة الدماء ..
فالكل يريد وضع الحجر مكانه ،
من أجل ذلك الشرف ، عمت الفتنة ..
حتى اهتدى أحدهم إلى حيلة :
أن اقعدوا جميعا في ناحية ،
ولنحتكم إلى أول من يدخل الكعبة ..
وتكون كلمته فينا نافذة ..فقعدوا جميعا صامتين ،
وكان القادم محمد الأمين ..

---

(١) يقصد أن الكعبة حين بنيت في عهد آدم ﷺ ، ثم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، كانت قبلة التوحيد ، ثم جعلتها قريش معقلا للأصنام فيما بعد .

فوضع الحجر الأسود فوق ثوب ،
وقال : أمسكوا أطرافه جميعكم ،
وتعالوا خلفي كلكم ..
ثم وضع الحجر مكانه بيديه ،
وبذلك وفق بين المختلفين فيه ..[1]
فالحجر الأسود من الجنة ..[2]

---

(١) وردت قصة هدم الكعبة وبنائها، واختلاف قريش في الركن الأسود بروايات بينها اختلاف يسير، خلاصتها أنه لما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويخافون هدمها . وإن كانت رضما فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها. وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة فتحطمت فأخذوا خشبها ، وأعدوه لتسقيفها ، وكان بمكة نجار قبطي . فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها .. وكان الوليد بن المغيرة أول من بدأ في هدمها . فاخذ المعول وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم لم نرد إلا خيرا، ثم هدم من ناحية الركنين، وهدموا حتى بلغوا أساس إبراهيم ﷺ . فإذا حجارة خضر أخذ بعضها ببعض ثم بنوا ، فلما بلغ البنيان موضع الركن يعني الحجر الأسود اختصموا فيمن يضعه ، وخرجت كل قبيلة على ذلك ، حتى تحاربوا ومكثوا على ذلك أربع ليال ، ثم اجتمعوا في المسجد وتناصفوا ، فزعموا أن أبا أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش ، قال اجعلوا بينكم فيما تختلفون أول من يدخل من باب المسجد ، ففعلوا ، فكان أول من دخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا به ، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر ، فقال : هاتوا لي ثوبا، فاتوه به ، فأخذ الركن بيده ، فوضعه في الثوب ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم رفعوه جميعا ، ففعلوا حتى إذا أتوا موضعه فوضعه هو ﷺ بيده وبنى عليه . انظر : شمس الدين الذهبي (تاريخ الإسلام) ، ج١، ص ٤٣/ ٤٤ .

(٢) جاء في فضل الحجر الأسود أحاديث كثيرة منها ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال: ليس في الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام ، فإنهما جوهرتان من جواهر الجنة ، ولولا ما مسهما من أهل الشرك ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله ﷻ .
انظر : النويري (نهاية الرب) ، ج١، ص٣٠٢ .

سوق عكاظ

(١٩)

سوق عكاظ بمكة ،
هي للأنظار قبلة
سوق جد كبيرة ،
للتجارة فقط غير مخصوصة ..
أروج تجارتها الكلمة ،
تهيم بها الأرواح مضطرمة ..
مركز للفكر ، للشعر ميدان ،
فوق عرشها استوى اللسان ..
حمم البراكين في أرجائها تتطاير ،
وغلالة أدق الأسرار تتناثر ..
لسان السماء ولسان الجنة ،
لسان ينتظر المعجزة ..
اجتلوا ما بتلك السوق ، انظروا ..
شيخ كبير ، فوق بعير ، لونه أحمر .
تحلق الناس حوله وتجمهروا ،
حنيف ينشد الحكمة ويذكرُ ،
« الموت كأس مشروب ولا مناص!
إني أراه محتوما ولا خلاص!
ألا إن الله عنده دين قويم ،
خالد زمانه ، وشمسه تدوم ..

ورسول من الحق يأتي ،
عنده الجمال ، والحقيقة لا تبلى ..
ليتني أكون من أمته ليتني ،
لكن الموت يطرق بابي ، ما حيلتي! »[1]
لكن واأسفاه ، لا يدري أن ما يقوله ،
والناس يسمعونه ،
عن النبي المنتظر ،
قد أوشك أن يظهر ..
« أحبوه ... ناصروه يا بشر! »
تلك كلمات راكب الجمل الأحمر ..

---

(١) لعل هذا الشيخ الحنيف الذي قصده الشاعر هو (زيد بن عمرو بن نفيل) الذي قال عنه رسول الله ﷺ إنه سوف يبعث أمة وحده . فلقد كان الوحيد في قريش الذي يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام ، وكان يقول : يا معشر قريش والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري ، ثم يقول : اللهم لو اعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك ، ثم يسجد على راحلته. وقد قتلته قريش للتخلص منه . انظر : شمس الدين الذهبي (تاريخ الإسلام) ، ج١، ص٥٥/ ٥٦ .

الفكر

(٢٠)

تفكير .. ثم تفكير ..
بوحي يا كائنات بالسر الكبير !
وأبسطي الجناح في السماء ،
وارفعي العلاء ،
تفكير .. ثم تفكير ..

دائما سفر وترحال ،
هنا وهناك ، وفي الجنوب والشمال ..
التفكير هو شغله ،
والسفر للفكر ضرورة ..
دائما سفر وترحال ..

« لك السلام .. لك السلام! »
ذلك دعاء الملائكة ..
وحلول النور في المعمورة ..
لم يعد هناك دليل آخر أو كلمة ..
« لك السلام .. لك السلام! »

يا لتلك الخشية ، يا لتلك الخشية!
لا خبر ، وليس ثمة لمعة ..
في قلبه خشية ،

كأن به وعكة ! .
يا لتلك الخشية ، يا لتلك الخشية!

تفكير .. ثم تفكير..
نحو المنزلة الأخيرة يرقى ،
والسابعة والثلاثين قد تخطى ،
لا يعلم سره إلا خديجة الكبرى ..
تفكير .. ثم تفكير..

في جبل حراء

(٢١)

في جبل اسمه حراء ،
بساطه الصحراء ..
رأسه تطاول السماء ،
كقاع بئر في الخفاء ..

في أعلاه مغارة ،
أرطب من حية .
ينزع الشعر صمتها ،
ويكتم الأنفاس قاعها ..

حضن للوحدة ،
للغيب أرجوحة .
ظل بها ثلاث سنوات ،
ينتظر ما هو آت ..

عمره الآن أربعون سنة ،
إنه عمر المعجزة ..
الأنوار تلألأت ،
والنداءات تتابعت ..

مزيد من الطهر والنقاء ،
والصفاء في الأشياء ..

رؤى طوال ستة أشهر ،
آن لها أن تظهر ..

ثم كان له صعود إلى الجبل ،
في الحادي عشر من رمضان ..
فرأى في نومه رؤيا ..
من الأنوار فيضان ..

أفلا تقلع السماوات؟
أفلا تطوى المغارات؟
قد تلألأ نور ،
أفلا يكون له على الأرض ظهور؟

أيتها السماء ، يا منديلا أزرق !
امسحي جبين الرسول !
من ذا الذي لاح له؟
إنه سلطان الملائكة جبريل! .(1)

---

(1) قال الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : أول ما بدئ به النبي ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحدث فيه ، فيتزود لذلك ، ثم يرجع .. وبينما هو على ذلك إذ رأى ملكا واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح : يا محمد أنا جبريل يا محمد أنا جبريل . فذعر رسول الله ﷺ من ذلك ، وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء ، فرجع سريعاً إلى خديجة ، وقال : يا خديجة إني أرى ضوءاً وأسمع صوتا ، لقد خشيت أن أكون كاهنا ، فقالت : إن الله لا يفعل بك ذلك يا بن عبد الله ، إنك تصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم . انظر : - ابن سعد (الطبقات الكبرى) ، ج١، ص١٩٤/ ١٩٥ .
- شمس الدين لذهبي (تاريخ الإسلام) ، ج١،ص٦٧ .

النبـي

(٢٢)

كل ما في الغيب من أسرار وأستار ،
لاح له الملك في عالم الأغيار :
« اقرأ» أول الوحي « اقرأ» ،
« اقرأ» أول أمر « اقرأ» !
فأجاب: « ماذا أقرأ؟ .. ما أنا بقارئ!»
قال: « اقرأ».. ثلاث مرات.. « ما أنا بقارئ!»
فبالآيات كان الخطاب ،
بما أنزل الله من كتاب .
قال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ (١)
دعوة للمعرفة من رب الكائنات ..
من أجلك أيها الإنسان !
كرم كبير وإحسان ..
﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾
و ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ ﴾ فتح المغاليق ..
ذلك من الله للعبد إفصاح ،
واسم الله هو المفتاح ..
قرأ جبريل أمر الله ،
ورتل النبي ﷺ الآيات بلسانه وقلبه ..

(١) هذه الآية وباقي الآيات التي بين الأقواس من سورة العلق .

ثم مسحت فجأة ،
كل السورة في لحظة ..
ثم اختفى الملك ، فانشقت الأرض والسماء ،
وزلزل النبي ﷺ أمام ذلك الجلاء..
الكون ركوع ..
والعقل خضوع ..
نزل من فوق الجبل وهو يحمل ثقلاً فوق كاهله ،
ورجع إلى بيته: زملوني .. دثروني! تلك قولته ..
آوى النبي إلى فراشه ،
يزلزله ارتعاشه ..(1)

(١) هناك خلاف حول اليوم الذي نزل فيه الوحي على الرسول ﷺ فمنهم من يقول إنه يوم سبع وعشرين من رجب وذلك وهم ،ومنهم من يقول إنه يوم الاثنين السابع عشر من رمضان ، ومنهم من يقول إنه الحادي عشر من رمضان . لكن الثابت أن جبريل عليه السلام جاء النبي وهو يتعبد في غار حراء ، فقال له: «اقرأ»، فقال الرسول ﷺ: «ما أنا بقارئ » ، قال ﷺ : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال: «اقرأ» ، فقلت: «ما أنا بقارئ » فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : «اقرأ» ، فقلت «ما أنا بقارئ » فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ حتى بلغ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قال : فرجع بها ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال ﷺ: يا خديجة مالي ، وأخبرها الخبر ، فقالت له : أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق .
انظر: ابن الجوزي (صفة الصفوة) ص٢٧ .

الخوف

(٢٣)

احتضن النبيُ ﷺ الغيبَ في فراشه ،
وهو يرتعد تحت دثاره ..
لم يكشف له السر عن شأنه ،
أو مقامه ، أو حاله ..
لا يوجد دليل بعد على نبوته ،
ليس إلا حيرته وخوفه ورعشته !
قد تأبى النوم عليه ،
كأن الأرض تميد تحت قدميه ! .
يتمنى لو يتوقف الزمان لحظة ، أو يحين حَيْنه ..
أو يقف على حقيقة أمره ..
فتقول له خديجة لا تخف وتطمئنه
وتمضي إلى عالِم يدعى ورقة ..(١)
هو ابن أخيها ، شيخ تقدمت سنه ،(٢)
فيقول لها : تلك للنبي الخاتم إمارة،
من سنين ونحن في انتظاره ..
فبشراك .. زوديه بالصبر والجسارة ..
ذلك الذي رآه .. قسما بالله ،

(١) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، ابن عم السيدة خديجة ، وكان من الحنفاء المتعبدين على دين النصارى في الجاهلية .
(٢) لم يكن ورقة بن نوفل ابن أخي السيدة خديجة بل هو ابن عمها ، وما ذكره الشاعر وهم غير صحيح .

إنه لجبريل الأمين ، المبعوث بالرسالات
وذهب إليه الشيخ وقال له :
أبشر .. فأنت حبيب الله ،
وأفضل المرسلين لديه ..
فانتظر متوكلا ، حتى يصدر أمره ،
وعندها ستلقى من قومك عداوة ..
آه .. لو طال بي عمري ،
ونقلت وقتها خلفك خطوي ،
لفديتك بروحي ورأسي ..
وحقاً .. فكم يلقى النبي من قومه معرة ،
وذلك هو النصيب العلوي للنبوة ..(١)

---

(١) يقال إن السيدة خديجة بعد ما أخبرها الرسول ﷺ بما جاءه ، قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ ، فقال ورقة بن نوفل : قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لق جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وأنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت . ويقال إن الرسول ﷺ كان يطوف بالكعبة فالتقى ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة أيضا ، فقال : يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتُكَذَّبَنَّه ، ولتُؤْذَيَنَّه ، ولتُخرَجَنَّه ، ولتُقَاتَلَنَّه ، ولإن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ، ثم دنى رأسه منه فقبل يافوخه ..
انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ، ج١، ص١٤٨ .

البرزخ

(٢٤)

ثلاث سنوات بالتمام ،
انقطع فيها الوحي والكلام ،
وانسدت السماء بإحكام ،
كأنها محزنة ظلام ..

جبل حراء صامت كتوم ،
والفضاء جليد مركوم ..
صمت وفكر بلا قرار !
اليد لا تبلغ ، والعقل يحار ..

سموها سنوات موت ،
وأطلقوا عليها برزخا ،
وهجرانا وانقطاعا ،
وسموا العرش فرسخا ..

النبي ما أحزنه ،
يكاد يقتل نفسه ..
وهاتف من السماء يقول :
توقف أيها الرسول ..[1]

---

(١) لما فتر الوحي مدة عن رسول الله ﷺ حزن حزنا شديدا ، وغدا مرارا كي يتردى من شواهق الجبال ، وكلما أوفى بذروة ليلقي نفسه تبدى له جبريل ، فقال : يا محمد إنك رسول الله حقا ، =

ليس للنزول درجات
بلغ الأمر منتهاه ..
إما الاتصال بالملكوت ،
أو يفارق الحياة ..
تعال .. أيا جبريل !
باللون والصوت الجميل ! ،
وبلّغ كلام الحبيب ،
لا تنتظر .. تعال ..

=

فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك . انظر : شمس الدين الذهبي (تاريخ الإسلام) ، ج١،ص٦٨

الرسول

(٢٥)

وفي يوم كان ينزل من الجبل منكسا رأسه ،
فاستوقفه صوت كأنما جذبه من ذراعه ..
فلم ير أثرا لشيء لما تلفت حوله ،
لكن الجبل قد انفتحت دهاليز صمته ..
وأحس صوتا ينبعث من الأرض .. لعله!
فشخص إلى السماء مخلوعاً فؤاده ..
أواه ! أهو هناك أم في الأعماق أجده؟!
فإذا ملك الوحي استوى على كرسيه ..
متألقا ، منيرا ، يخطف العين سناه ..
فنزل من الجبل مسرعا يجرجر أذياله ،
وهو يرى نفس المنظر أينما ولى وجهه ..
إنه جبريل .. في كل المرايا تَجَلِّيه ،
فانطلق يعدو نحو البيت تصطك أسنانه ..
وكأنما ريح عاصف تحرق عقله!
وقال : «صبوا الماء البارد من القرب فوقي ،
وبدثار ثقيل دثروا جسدي »
وظل يرتجف ارتجافا ، وهم يدثرون ،
كأنما تنطلق من جسده حمم البراكين ![1]

---

(١) روي أن رسول الله ﷺ كان يحدث عن فترة الوحي فيقول: بينا أنا أمشي سمعت صوتا من =

هذا هو انبلاج النور ، هذا هو البرق الإلهي ،
إنه حزمة من النور ، سلطها العرش على فراشه ..
ذلك هو الرسول ، إمام كل المرسلين .
جاء الملك بأمر من رب العالمين :
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾[1]

= السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه رعبا ، فجئت فقلت : زملوني زملوني ، فدثروني ، فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ . انظر : ابن الجوزي (صفوة الصفوة) ، ج١، ص٢٨ .

(١) الآيتان ١، ٢ من سورة المدثر .

الأوائل

(٢٦)

خديجة أول من أسلمت ،
لما بلغها الخبر
أذعنت له وأسلمت ..[١]

ثم تلاها أبو بكر ،
أسلم بقلبه ،
فالأمر لا يدركه فكر ..[٢]

ثم أسلم «على» من الصبية ،
كان أول الأمر في حيرة ..
ثم تغلغل في روحه ..[٣]

ثم زيد العبد العتيق ،
ففتحت له قلعة ،
الأمن والحرية ..

(١) الثابت أن السيدة خديجة هي أول من آمن برسول الله ﷺ ودخل في الإسلام .

(٢) يروى أن رسول الله ﷺ قال : ما دعوت أحد إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما عكم عنه حين ذكرته وما تردد فيه . انظر : ابن الجوزي (صفة الصفوة) ص٧٨ .

(٣) يروى أن عليًا حين دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام قال : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ولست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب ، فمكث تلك الليلة ثم أوقع الله في قلبه الإسلام فأصبح فجاء إلى الرسول ﷺ . انظر : ابن الجوزي (صفة الصفوة) ص٧٨ .

ثم أسلم رجال وعبيد ونساء وأطفال ،
ومن كل ناحية رجال ،
أسلموا فرادى ..

ثم دعوا أصحابهم ،
فعصفت الريح في قلوبهم ،
إنها المحبة الأبدية ..

قد أذاعوا خبر السماء
وقبضة كل من دان بالولاء ،
تطرق الأبواب للدعاء ..
ومضوا من بيت لبيت ،

ليتمَوا أول بناء
فبلغوا تسعة وثلاثين .

الدعوة

(٢٧)

في الخفاء بدأت الدعوة ،
فيا حجب كوني شاهدة !
الخلوة نجوى ..
فيا حجب كوني شاهدة !

وامتلأت دار الأرقم ،[١]
بأوائل من أسلم .
أمامها صحراء مترامية ،
فيا فيافي كوني شاهدة !.

الأوائل كانوا من الشباب والمستضعفين ،
والحائرين المساكين ..
واليتامى البائسين ..
فيا بيوت كوني شاهدة ..[٢]

كانت قريش منهم ساخرة ،
ولأفعالهم شانئة ..

---

(١) هو الأرقم بن أبي الأرقم بن أسد بن عبد الله المخزومي ، وكان رسول الله ﷺ يلتقي أصحابه سراً في داره .

(٢) كان معظم السابقين في اعتناق الإسلام من العبيد والضعفاء مثل بلال بن رباح ، وصهيب الرومي ، وزيد بن حارثة ، وعمار بن ياسر ، وأبي ذر الغفاري .

الحركة مستمرة ،
فيا شوارع كوني شاهدة!

الألسن تسبيح وذكر ،
تلهج بيوم الجهر ..
فيا ليالي كوني شاهدة ..
ويا ساعات الشروق كوني شاهدة!

ثم صدر الأمر : ارفع الراية!
تلك الأصنام ستسحق!
وذلك الكفر سيمحق!
فيا رايات كوني شاهدة!

عمر مسلم

(٢٨)

ذلك زمان غريب ،
للدخان فيه هبوب .
من الأعداء عرفوه [١]
والحوضَ بحرا جعلوه ..
قد أصبح عمر من المسلمين ..

كانت كلمته كلمة .. حقيقية ،
أنه سوف يقتله ..
وجرد عمر لذلك سيفه ..
فنزل من السماء الأمر المبين ،
أن يصبح عمر من المسلمين ..

لقيه رجل في الطريق فقال :
«أختك أصبحت من المسلمين!»
ذلك أمر غير هين
قد أصبح عمر من المسلمين

أحقاً .. أن أخته ..!
هل أنت مسلمة؟! .. فلطمها!

---

(١) يقصد أن عمر بن الخطاب كان معروفاً بشدة كراهيته للإسلام قبل إسلامه .

فسال الدم من وجهها ..
وبعدها صار من النادمين ..
قد أصبح عمر من المسلمين ..

ذاك صوت مبين!
ما هذا؟ «انظر .. إنه القرآن!»
فنظر متحيرا لحظة ..
ثم رق قلبه ..
قد أصبح عمر من المسلمين ..

القرآن ميزاب الأسرار ،
وأنفاس الخلود ..
قد صار للسهم اللامع عبدا ..
وإنكاره أضحى إيمانا .
قد أصبح عمر من المسلمين ..(1)

(1) هناك روايات كثيرة عن إسلام عمر بن الخطاب ، أشهرها تلك الرواية التي اعتمد عليها الشاعر، ومفادها أن عمر بن الخطاب خرج متقلدا سيفه ، فلقيه رجل من بني زهرة ، فقال له : أين تعمد يا عمر؟ ، قال : أريد قتل محمدا ، قال : كيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدا ، فقال : ما أراك إلا قد صبأت! ، قال : أفلا أدلك على العجب إن ختنك وأختك قد صبئا وتركا دينك . فمشى عمر فآتاهما وعندهما خباب بن الأرت ، فلما سمعا بحس عمر توارى في البيت ، فدخل عمر فقال : ما هذه الهينمة؟ وكانوا يقرأون طه ، قالا : ما عدا حديثا تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبأتما ! . فقال له ختنه : يا عمر إن كان الحق في غير دينك ، فوثب عليه فوطئه وطئاً شديدا ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفخها نفخة فدمي وجهها ، فقالت وهي غضبى : وإن كان الحق في غير دينك إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده رسوله . فقال عمر : أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأه ، فقالت أخته : لا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ ، فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ ﴿ طه ۝ ﴾ حتى انتهى إلى ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ
=

العذاب

(٢٩)

الأشكال متجسدة ببابه .. براثنا براثنا ،
والحشرات منيرة في طريقه ..أشواكا أشواكا ..
الأذى يحوم حول المؤمنين بجناحين ،
وحائك العذاب يحيك قميص نار للمؤمنين.

كم من مسلم ضعيف جُرَّ عاريا فوق الرمال الملتهبة ،
كبلال الذي جروه من حبل في عنقه..(١)
«الله أحد» كانت صيحتهم ، تنطلق من شفاه دامية ..
وفي جبينها الهلال المخضب ، استشهدت أول شهيدة ..(٢)

عمه أبو طالب العطوف يقول له: « على رسلك !

ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ فقال : دلوني على محمد ، فلما سمع خباب قول عمر خرج فقال : أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام»فانطلق عمر حتى أتى الدار التي بها الرسول ﷺ فأعلن إسلامه .
انظر : شمس الدين الذهبي (تاريخ الإسلام) ، ج١، ص١٠١ .

(١) يقصد بلالاً بن رباح ، وما كان يلقاه من تعذيب أمية بن خلف له لكي يترك الإسلام ، فكان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بصخرة عظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ،ج١، ص١٩٤ .

(٢) لعله يقصد أم عمار بن ياسر التي قتلها بنو مخزوم لإصرارها على الإسلام ، وقد كانوا يعذبونها هي وزوجها وابنها برمضاء مكة ، فيمر بهم الرسول ﷺ فيقول : صبرا آل ياسر موعدكم الجنة .
انظر : ابن هشام (نفسه)ص١٩٦

لو كنت تريد المال والشرف جعلوه تحت قدميك!»
فأجاب النبي: كلا .. لا أحيد عن وجهتي ،
حتى لو جعلوا الشمس والقمر ملك يدي!..[1]

ثم ينادي قريشا فيقول : «أرأيتم لو أخبرتكم
أن عدوا خلف هذا الجبل ، أأنتم لي من المصدقين؟»
قالوا: «نعم .. إنك أمين ، ما أنت من الكاذبين!»
قال: «فإن الله جعلني خاتم المرسلين»[2]

فكانوا لكلامه من المنكرين الجاحدين ،
وقالوا: «إنه شاعر ، أو ساحر ، أو مجنون»
ووجدوه ساجداً في صحن الكعبة ،
فألقوا فوق ظهره جيفة ..[3]

---

(١) يروى أن قريشا طلبت إلى أبي طالب أن يمنع الرسول ﷺ عن سب آلهتهم ، وأن يصرفه عن الدعوة إلى الإسلام . فكان يردهم ردا جميلا . فلما زاد تخلفهم إليه لذلك الأمر ، بعث إلى رسول الله ﷺ فقال : يا بن أخي إنهم قد جاؤا إليَّ فقالوا كذا وكذا ، فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فظن الرسول ﷺ أن عمه سيخذله ويسلمه ، فقال : يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ثم استعبر رسول الله ﷺ ثم قام . فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخي ، فأقبل إليه . فقال : اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبدا . انظر : شمس الدين الذهبي (تاريخ الإسلام) ، ج١، ص٨٦ .

(٢) يروى أن رسول الله ﷺ خرج حتى صعد الصفا ، فهتف : يا صاحباه ، قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمدا ، فاجتمعوا إليه ، فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ ، قالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال ﷺ : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ، ثم قام . انظر : شمس الدين الذهبي (نفسه) ، ص٨٤ .

(٣) قال رسول الله ﷺ عن أذى قريش له : «كنت بين شر جارين ، بين أبي لهب ن وعقبة بن معيط،
=

وحاصروه هو وقومه ،
فلا سلام ولا زواج ولا ماء ولا لقمة ..
وكاد يهلك قومه وشيعته ..
يا له من قدر عظيم من العذاب في سبيل الله ..(١)

وتمضي السنون ويبلغ الأمر غايته ،
الإسلام مع الأيام تقوى شوكته ، والكفر تزداد قسوته ،
ويخرج المسلمون في آفاق مجهولة ..
اليوم إلى الحبشة ، وغدا إلى المدينة المنورة ..(٢)

=
إنْ كانا ليأتيان بالغروث فيطرحانها على بابي» ، وروي أن عقبة بن معيط قذف على الرسول ﷺ سلا جزور وهو ساجد ، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فرفعته عنه .

(١) يروى أن قريشا لما غاظها أمر الإسلام ، أجمعت على حصار النبي ﷺ وكل بني هاشم في شعب أبي طالب ، كتبوا بذلك صحيفة ، وظلوا يمنعون عنهم الميرة والمادة والمخالطة ثلاث سنوات حتى بلغهم الجهد الشديد ، وظل الأمر كذلك حتى أطلع الله الرسول ﷺ على أمر صحيفتهم وأن الأرضة أكلتها خلا موضع اسم الله ، فلما بلغهم ذلك ووجدوا كلام الرسول ﷺ صدقا ، أسقط في أيديهم وفكوا الحصار . انظر : ابن سعد (نفسه) ص٢٠٩ .

(٢) لما اشتد أذى الكفار بصحابة الرسول ﷺ أمرهم بالهجرة إلى الحبشة فهاجر من استطاع منهم إليها. وأحسن النجاشي ضيافتهم ورعايتهم ، فأرسلت قريش إليه رسولين بهدايا ثمينة ليطردهم من الحبشة ، فرفض ذلك ، وزاد المسلمين في الحبشة تمكينا وأمنا . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ، ج١، ص١٩٧ - ٢٠٨ .

المعراج

(٣٠)

السير في الليل .. اسمه في القرآن
إسراء ..
وقد تحرر الجسم من الزمان والمكان ،
ذاك من الله إبراء ..
الحبيب يتمنى لقاء حبيبه ،
يالقداسة اللقاء !.
«أخذوني ليلا وأعادوني»
حديث كله بهاء!
صعد طبقا عن طبق ،
له شأن في كل سماء ..
جاوز مدارات النجوم ،
له في كل سماء ارتقاء ..
جبريل بجانبه ، والبراق تحته ،
حتى بلغ نقطة ..
هي لجبريل آخر نقطة ، وموضع ومحطة ،
هنالك كانت شجرة ..[١]
فقال جبريل : « هنا آخر مقامي ،
وذاك آخر شأني !

---

(١) يقصد سدرة المنتهى .

إنْ خطوت خطوة ، النار تحرقني!
لا أستطيع نقل خطوي!»
فسأل الرسول ﷺ: «وكيف الوصول ،
أما من معين؟ »
فقال جبريل : «عليك بالحب ،
ليس غيره معين ..»
بالحب استعان ، فلاح له طريق ،
نوراني ممهد ..
فتحرر من كل شيء ، وكان اللقاء ،
فاللهَ يشهد ..
قد رأى ، كيف يصف ما رأى؟
ليس له حد ..
إنه الأحد ، ومحمد وحده واحد فوق العدد،
الله الأحد ..(١)

---

(١) يتحدث الشاعر في هذه القصيدة عن معجزة الإسراء والمعراج معا ، وليس عن المعراج وحسب ، كما يوحي بذلك العنوان ، وقد اختلف في ضبط تاريخ هذه المعجزة ، والذي رواه ابن سعد أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً ، ويقصد بالإسراء الرحلة من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس . أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج إلى طبقات السماء العلا ، ثم الوصول إلى سدرة المنتهى ، حيث أوحى الله إليه عندئذ ما أوحى ، وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين .
وقد أحسن الشاعر إذ لم يعتمد في قصيدته على كثير من الأباطيل التي راجت حول هذه المعجزة ، والتي نسبت كذبا إلى ابن عباس .
انظر : ابن سعد (الطبقات الكبرى) ، ج١، ص٢١٣- ٢١٤. د/ محمد سعيد رمضان البوطي (فقه السيرة) ص١١٥ .

الهجرة

(٣١)

الشعاب بين مكة والمدينة ،
مسارب بجراح الحسرة مثخنة ..
شعاب ، بدايتها عند نهايتها ،
شعاب ، الله غايتها ..

شعاب ليس بها إنس ولا جن ،
غير حمامتين من نور مبين .[١]
وأقدام الصاحبين صلات ،
بين الأرض والسماوات ..
شعاب ليس بها إنس ولا جن ..

طلبا للعون خارج الوطن ، كانت الهجرة ،
وحب الوطن وثاق لصاحب الدعوة ..[٢]
احتضان الوطن من الخارج هو أمنيته ،
وفتحه ممن يليه ، هو رغبته ..
طلبا للعون خارج الوطن ، كانت الهجرة ..

للمهاجر لغوب ، وللأفق هروب معا ،
والغاية المنشودة في الأفق لا تُرى .

---

(١) يقصد الحمامتين اللتين باضتا على فتحة الغار .

(٢) يقصد أن الرسول ﷺ أخرج من مكة مكرها ، ولم يخرج مختارا .

الأفق والغاية معه يصطحبان ،
الأفق هو النبي ، والغاية الإنسان ..
للمهاجر لغوب ، وللأفق هروب معا ..

ومسلمو المدينة في انتظار ،
إنهم أبطال للإسلام أنصار ..
هم لخاتم الأنباء فداء ،
بالمال والروح والنساء
مسلمو المدينة في انتظار ..[1]

(١) كان الأنصار وبعض المهاجرين قد استبطأوا رسول الله ﷺ في القدوم عليهم فكانوا يغدون إلى ظهر حرة العصبة فيتحينون قدومه في أول النهار ، فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم، فلما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسوا كما كانوا يجلسون فلما أحرقتهم الشمس رجعوا إلى بيوتهم . فإذا برجل من اليهود يصيح على أطم بأعلى صوته : يا بني قيلة هذا صاحبكم قد جاء . فخرجوا فإذا رسول الله ﷺ وأصحابه الثلاثة . فسمعت الرجة في بني عمرو بن عوف والتكبير . انظر : ابن سعد (الطبقات الكبرى)، ج١، ص٢٣٣ .

الغار

(٣٢)

هنا غار ثور ، [١]
هنا منزل السر ..
نوره ظلام ،
وصمته كلام ..
على فتحته خيوط ،
طفراء العنكبوت ..

وحوله المتعقبون ،
عبثا يفتشون .. [٢]

هنا غار ثور ،
هنا منزل السر .

(١) غار ثور . هو الغار الذي أقام به رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق ، ثلاثة أيام ، عندما خرجا مهاجرين من مكة إلى المدينة حتى ينقطع طلب الكفار لهما ، وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر يخبرهما بأخبار مكة ، ثم يدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يروح عليهما بغنمه ، فإذا خرج من عندهما عبد الله ، تبع عامر أثره بالغنم كي لا يظهر لقدميه أثر. انظر: ابن هشام (السيرة النبوية) ،ج٢، ص٣٠٦- ٣٠٧ .

(٢) بعد أن علم المشركون بخروج الرسول ﷺ ، انطلقوا ينتشرون في طريق المدينة يفتشون عنه في كل المظان ، حتى وصلوا إلى غار ثور ، وسمع الرسول وصاحبه أقدام المشركين تخفق من حولهم ، فأخذ الروع أبا بكر وهمس يحدث النبي ﷺ لو نظر أحدهم تحت أقدامه لرآنا ، فأجابه عليه الصلاة والسلام : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما . انظر : محمد سعيد رمضان البوطي (فقه السيرة) ، ص١٤١ .

وأبو بكر في ذكره،
يربط على قلبه ،
خريطة وجه النور ،

وأبو بكر في ذكره ،
يسبح بأمره..

هنا غار ثور ،
هنا منزل السر ..
واسم الله العظيم ،
له في القلب تمكين .
بعد البعد ،
ووراء الوراء ..

عتبة غار ثور ،
مهد علوم السر ..

هنا غار ثور ،
هنا منزل السر ..
ذكر ، ثم ذكر ، ثم ذكر ،
ثم الوصل الكبير ..
لأبي بكر تسليم ،
ميراث قلبه الكبير ..

ذاك هو القانون الخالد ..
هو الظاهر والباطن ، هو الأحد .

المدينة

(٣٣)

المدينة حول الرسول ،
تحيط به وتحييه ..
تجمعوا حيث بركت ناقته ،
إنه منزل أبي أيوب ، خالدة بركته ..[١]

ثم أقام مسجدا حيث بركت الناقة ، [٢]
بناه من طين بيده الشريفة ،
هنالك بدأ طريق الأبدية ،
على أسس الإسلام الحنيفية ..

وتآخى المهاجرون والأنصار ،[٣]

---

(١) هو الصحابي الجليل أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب المعروف بالأنصاري الذي استضاف رسول الله ﷺ حوالي سبعة أشهر ، حيث أخذ رحل رسول الله ﷺ وأدخله بيته والأنصار يتنافسون لينالوا شرف استضافته ، فقال لهم الرسول ﷺ : المرء مع رحله ! . انظر : ابن سعد (الطبقات الكبرى) ، ج١، ص٢٣٧ .

(٢) كان الصحابة يتنافسون للأخذ بخطام ناقته القصواء لدى دخوله المدينة ، وهو ﷺ يقول لهم دعوها إنها مأمورة ، حتى بركت بقباء، وهناك أسس مسجد قباء ، وكان رسول الله ﷺ يباشر البناء مع أصحابه ينقل معهم الحجارة بنفسه. انظر: ابن هشام (السيرة النبوية)، ج٢، ص٣١٣.

(٣) بعد بناء المسجد آخى الرسول ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة والتوارث بينهم بعد الممات ، بحيث يكون أثر الأخوة الإسلامية في ذلك أقوى من أثر قرابة الرحم ، وقد ظلت عقود هذا الإخاء مقدمة على حقوق القرابة إلى موقعة بدر ، حيث نزل في أعقابها قوله تعالى ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ .
انظر : ابن هشام (نفسه) ص٣٢٠- ٣٢١ .

كأنهم في كل حين مجمع الأنوار ..

ونزل أهل الصُّفة البكائون ،(1)
في جباهم نور مبين ..

ثم جاء الأمر أن يمموا شطر الكعبة في الصلاة ،
فإن الكعبة هي آخر قبلة ..(2)
أما قبلة القلوب فإنها :
﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾(3)

المدينة لمجتمع الإسلام ميدان ،
ميدان رايته هي الأذان .(4)

---

(1) أهل الصُّفة قوم من أصحاب الرسول ﷺ لا منازل لهم ، فكانوا ينامون على عهد الرسول ﷺ في المسجد ويظلون فيه ما لهم مأوى غيره ، ومنهم بلال بن رباح ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وأبو ذر الغفاري ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وأبو هريرة .
انظر : ابن سعد (الطبقات الكبرى) ، ج١ ،ص٢٥٥- ٢٥٦ .

(2) لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ، وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة ، فجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء ، فنزلت عليه ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ فصار يوجه إلى الكعبة .
انظر : ابن سعد (الطبقات الكبرى) ج١، ص٢٤١ .

(3) البقرة آية ١١٥ .

(4) كان الرسول ﷺ حين يريد جمع المسلمين إلى الصلاة ، يأمر مناديا فينادي : الصلاة جامعة ، فيجتمع الناس ، فلما صرفت القبلة إلى الكعبة أمر بالأذان ، فتشاور مع صحابته في ذلك ، وذكروا أشياء يجمعون بها الناس للصلاة ، فقال بعضهم البوق ، وقال بعضهم الناقوس ، فبينما هم على ذلك نام أحد الصحابة – يقال عمر بن لخطاب ، ويقال عبد الله بن زيد الخزرجي – فرأى رجلا عليه ثوبان أخضران حفظه الأذان على النحو الشرعي المقرر ، فأتى الرسول ﷺ
=

وشهر بها في العام توج تاج سلطان ،
فيه صوم لله ، إنه شهر رمضان ..[1]
في مكة دولة للكافرين ،
وفي المدينة تقية للمنافقين ..
فجاء الأمر بالتمكين للدين المبين :
اضربوا بسيف الإسلام المشركين .

=
فأخبره ، فقال له ﷺ : قم مع بلال فألق عليه ما قيل لك ، وليؤذن بذلك .
انظر : ابن سعد (نفسه) ص٢٤٦ .

(١) فرض صوم شهر رمضان في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا بعد الهجرة .
انظر : ابن سعد (نفسه) ص٢٤٢ .

بدر

(٣٤)

أسمها بدر الكبرى ، بدر الدامية الحاسمة ،
بدر ، لا مثيل لها في حروب الله ، إنها ملحمة ..[١]
حيث ألف ، في مواجهة ثلاثمائة ،[٢]
ثلاثمائة نحو الخلود ساعية ..
فريقان ، أجسامهم متشابهة ، وأرواحهم شتان ،
الإبن يحارب أباه ، والأخوان يقتتلان ..[٣]
إنها درس في الأخوّة الحقّة ،
أخوة الروح لا أخوة الأرومة ..
فما من تمايز بالألوان في الإسلام ،
إنهم من عنقود واحد ، كل الأنام ..[٤]
فدين الله ثورة .. ثورة ،
سيل يمحو كل شيء .. الأب والقبيلة ..

---

(١) يقصد الحروب في سبيل الله .

(٢) من الثابت أن عدد المسلمين ببدر كان ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا وعدد الكفار نحو ألف رجل.

(٣) فرضت الحرب في بدر على المسلمين أن يحاربوا آباءهم وإخوانهم وأقاربهم الذين كانوا مع كفار قريش . فقد كان ولاؤهم للإسلام ، فوق ولائهم للرحم . ويروى في ذلك أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص : إني أراك كأن في نفسك شيئا ، أراك تظن أني قتلت أباك ، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه ، فحدث عنه ، وقصد له ابن عمه «علي» فقتله . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ج٢، ص٤٢٣ .

(٤) يشير بذلك إلى حديث رسول الله ﷺ : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

بدر ، حرب صغيرة ، لكنها غزوة في عبرتها ،
صغيرة لكن ما أكبر معناها ..
لأول سيف مسلول في بدر ، رحمة متلألئة ،
وله كرامة ، كتلك التي في المحنة ..
فتلك صفوف الكفر المغرورة ، مدحورة ،
إن بدرا على رأس الكفر أول صفعة ..
والمستضعفون في بدر في ساحة المعركة ،
يسمعون في الريح أصوات الملائكة ..(١)
للخيول صهيل ، وللسيوف صليل ، ولصدى التكبير ترتيل ،
إنها ملحمة تراها العيون غير المبصرة ،
اسمها بدر الكبرى ، الدامية الحاسمة ،
لك أن تسأل عن بدر وعن سيف المرحمة ..

---

(١) من الثابت أن الله تعالى أمد المسلمين يوم بدر بمدد من الملائكة إمداداً حقيقيا غير مجازي ولا معنوي ، ودليل ذلك من كتاب الله تعالى قوله في سورة الأنفال ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ ، كما روى ابن هشام أن النبي ﷺ خفق قلبه وهو في العريش يوم بدر ، ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على النقع » . انظر : د/ محمد سعيد رمضان البوطي (فقه السيرة) ص١٧٥ .

أُحد

(٣٥)

«أحد جبل يحبنا ونحبه»[١]
أحد يا له من جبل!
للكافرين أمل!
«من أجل الثأر من بدر تلك حربنا»[٢]
رأي النبي عدم الخروج من المدينة ،
فرأوا غير رأيه ،
وخرجوا إلى الصحراء الجدبة ..[٣]
أمر الرماة فوق الجبل : لا تتركوا مكانكم ،
حتى لو الطيور تخطفتنا ..
أو أننا انتصرنا ..
وعلى أشلاء الكافرين مررنا ..
فاستخف الظفر الرماة ، ونسوا ما قيل لهم ،
وتركوا أماكنهم ،

---

(١) حديث شريف .

(٢) بعد هزيمة الكفار في بدر ، اجتمع رأي من بقي من زعمائهم على الثأر لقتلاهم في بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ج٣، ص٤٤ .

(٣) كان من رأي رسول الله ﷺ عدم الخروج من المدينة لملاقاة الكفار ، لكن بعض المسلمين ممن لم يشهدوا بدرا رأوا الخروج حتى لا يظن الكفار بالمسلمين الخوف والجبن ، فنزل الرسول ﷺ على رأيهم . انظر : ابن هشام (نفسه) ، ص٤٦ .

وفجأة أحيط بهم .

وظفر الكافرون بالمؤمنين واستذلوهم .[(١)]

كمطر من سجيل ، حلت شائعة قتل الرسول ..

إن له من الله الحول والطول ..

قد كسرت رباعيته ،

ونزف الدم من جبينه وخده وشفتيه ..[(٢)]

لأبي سفيان خوار : «لقد وعدنا هبل ..

النصر لهبل ! »

وعمر يقول : تباً لك

ليس وعد هبل ، بل قدر الله عز وجل!»

سبعون شهيدا ، من بينهم عم الرسول .[(٣)]

أحد امتحان كبير ..

(١) كان الرسول ﷺ قد جعل على الجبل خلف المسلمين خمسين راميا ، وجعل على رأسهم عبد الله بن جبير ، وأوعز إليهم قائلا : قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا ، لكن اغلبهم خالف أمر الرسول ﷺ لما رأوا المسلمين انتصروا في بداية المعركة ، وتركوا أماكنهم ، فكرَّ عليهم الكفار ، وهزموا المسلمين هزيمة موجعة . انظر : د/ محمد سعيد رمضان البوطي (فقه السيرة) ص١٨٥- ١٨٦ .

(٢) لما أحيط بالمسلمين في أحد ، اجتهد الكفار لينالوا من رسل الله ﷺ ، فراح الصحابة يقدمون أرواحهم رخيصة دونه حتى قتل معظمهم ، وخلص الكفار إلى رسول الله ﷺ فرمي بالحجارة حتى أُصيبت رباعيته ، وشج وجهه ، وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ، وشاع في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل ، فأدخلت هذه الشائعة الرعب في قلوب بعض المسلمين فذهبوا يولون الأدبار ، أما بعضهم الآخر فزادته بسالة فظلوا يجاهدون حتى وضعت الحرب أوزارها . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ج٣، ص٦١- ٦٢ .

(٣) هو حمزة بن عبد المطلب ، وقد مُثِل به أبشع مثلة .

إنها ابتلاء الدهور ..

أي عقل ، وأي منطق ، هادية هي كلمة الرسول ..[1]

(١) يقصد أن المسلمين لو أطاعوا أمر رسول الله ﷺ في عدم الخروج من المدينة ، ولو أن الرماة أطاعوا أمره ولم يتركوا أماكنهم فوق الجبل ، ما كان ليصيب المسلمين ما أصابهم .

المحرمات

(٣٦)

بعد أحد نزلت المحرمات ،
فحرمت الخمر على ثلاث مرات ..
كانت الثالثة هي الناهية ،
وظهر حلال الأمر من حرامه ..[١]

في اليمين الحلال ، وفي الشمال الحرام ،
هذا حلال ، وهذا حرام ..
وأدرجت الأوامر والنواهي في بيان ،
كل محرم شر ، وكل مباح خير وإحسان

الجور عن الحق هو الذنب ،
وادعاء العصمة أكبر ذنب ..
وغاية المأمول من رب العالمين ،
أن يغفر لنا الذنوب أجمعين ..

---

(١) بمقتضى حكمة التدرج في التشريع لم يحرم الإسلام الخمر دفعة واحدة لشدة تعلق الناس بها في الجاهلية ، بل حرمت على ثلاث مراحل ، جاءت الأولى في قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ «البقرة آية ٢١٩» ثم تلتها المرحلة الثانية في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ «النساء آية ٤٣» ثم حرمت في الثالثة في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ «المائدة آية ٩٠» .

كانت الخمر في المدينة كالأنهار ،
يحتبسها الناس في كل دار ،
فحرمها الدين من أجل دار البقاء ..
طهروا أنفسكم من الصهباء ..

السكير ذو لب مذهوب ،
نور الله عن قلبه محجوب ..
فيا لضيعة من يرفض لطف الرحمن ،
ويا لوحشة أن يسكن القلب الشيطان ..

ثلاثة أشياء حرام : الخمر والفأل والقمار ، [1]
فالقمار يذهب الوجه عن جليل الأعمال ..
وماذا يعقد الإنسان على الأصنام من آمال؟
أفلا يخاف من كشف الأستار؟!

كالنقش بناء الشريعة المقدسة ،
حلال ، وحرام ، وميزان ، ووجهة ..
ما كان بعد أُحد كسيل العَرِم ،
لكن السيل ، أيّ شيء هدم؟ [2]

(١) وردت أحاديث كثيرة في النهي عن الطيرة ، ومنها قوله ﷺ :(القيافة ، والطيرة ، والطَّرق من الجبت) . انظر : النووي (رياض الصالحين) ص٥٣٢ .
(٢) يقصد أن سيل الإسلام إنما اجتاح الخبائث والمنكرات فقط .

اليهود

(٣٧)

أين اليهود ، أين بنو إسرائيل أين؟
إنهم سد في وجه الدين ..
من عِرْق واحد ، لكن شتان في الجِبِلَّة والذرية ،[١]
وكلهم مهما كثروا سواء في المزية ..
اليهود قوم يخونون المرسلين ،
جعلهم الله في القرآن من الملاعين ..[٢]
وأول خيانة لهم كانت مع نبيهم ،
فليس بين البشر في الخبث مثلهم ..
في دس السموم ما أفظعهم ،
وفي الكيد لقافلة الإيمان ما أغدرهم ..
في المدينة لهم حلف مع المنافقين ،
وعن الصراط المستقيم لهم ألف ضلال مبين ..
كانت أول خسة لهم مع إمرأة مسلمة ،[٣]

---

(١) يقصد أن المسلمين واليهود ينحدرون من ذرية إبراهيم عليه السلام ، لكن شتان بينهم في الأخلاق والطبائع .

(٢) لعن الله اليهود في مواضع كثيرة بالقرآن الكريم ، مثل قوله تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ «المائدة ١٣» وقوله تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ «المائدة ٧٨».

(٣) كانت أول خيانة لليهود في المدينة ، خانوا بها عهدهم لرسول الله ﷺ ، ما كان من أمرهم مع إمرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ يهودي بها ، فجعلوا =

فطُردوا أذلاء خارج المدينة ..

وحاك يهود بني النضير للرسول مكيدة ،

فشردت تلك القبيلة الخائنة ..[1]

ولما كشف قناع الغدر عن وجوههم ،

جمعوا ضد الإسلام أحزابهم ،

وأرسلوا إلى مكة رسولهم ،

أن توحدوا ، وسددوا ، وقاربوا ،وتجهزوا

بسيوفكم ، ورماحكم ، وجيادكم ، ودرعكم ، هيا تأهبوا ،

إنها للقضاء على الإسلام أخر فرصة لنا ،

وذاك زمان وحدتنا ..

أنتم في الأمام ونحن وراءكم ![2]

=

يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت عورتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين عل الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين ، فحاصرهم الرسول ﷺ مدة من الزمن حتى نزلوا على حكمه ، ثم أمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى الشام . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية٩ ، ج٣، ص٣٤- ٣٥ .

(١) يروى أن الرسول ﷺ ذهب إلى يهود بني النضير ليعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، فاتفق اليهود على أن يظهر أحدهم على بيته فيطرح عليه صخرة ، فأخبر اللهُ رسوله ﷺ بما همت به اليهود ، فنهض سريعا كأنه يريد حاجة ، ثم أرسل إليهم ليخرجوا من المدينة ، لكن عبد الله بن أبي بن سلول أرسل إليهم الا يخرجوا وأن يتحصنوا بحصونهم وأنه مانعهم من المسلمين ، فحاصرهم المسلمون حتى استسلموا وخرجوا بدمائهم وما حملته إبلهم . انظر : ابن سعد (الطبقات الكبرى) ج٣، ص٩٩ .

(٢) من الثابت أن نفرا من زعماء اليهود من بني النضير خرجوا حتى قدموا مكة ، فدعوا قريشا إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا لهم : سنكون معكم حتى نستأصله ، واتفقوا مع قريش على حرب المسلمين وتواعدوا لذلك ، ثم ذهب زعماء اليهود إلى غطفان فدعوهم إلى مثل ما دعوا قريشا =

لقد حرض اليهود جموع الكافرين ،
فهؤلاء هم الأحزاب بالمدينة يحيطون ..

=

إليه ، ولم يزالوا بهم حتى وافقوهم على ذلك ، ثم التقوا بني فزارة وبني مرة ، وتم لهم مع هؤلاء جميعا تواعد في الزمان والمكان لحرب رسول الله ﷺ .

انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ج٣، ص١٥٧ .

الأحزاب أو الخندق

(٣٨)

الأحزاب هو اسمها ،
والخندق اسم أخر لها ..
للضلالة أخر نطحاتها ،

الويل والثبور للكفر ،
أفلا يكف مرة عن المكر؟!
أيحسب أن الأمر يسر؟!

سلمان بالخندق هو المشير ،[1]
بمعوله المقدس الطهور ،
يفتت الصخور .

إنها غزوة المعجزات ،
فطعام عشرة رجالات ،
يكفي الألوف .. يا للبركات !.[2]

---

(١) هو الصحابي الجليل سلمان الفارسي ، وهو الذي أشار على الرسول ﷺ بحفر الخندق .

(٢) ذكر ابن هشام من بين معجزات الرسول ﷺ التي وقعت أثناء حفر الخندق معجزة التمرات التي أرسلتها عمرة بنت رواحة مع ابنتها لتعطيها لأبيها وخالها عبد الله بن رواحة وهما يحفران الخندق فمرت الفتاة برسول الله ﷺ فأخذها منها ونادى كل أهل الخندق فأكلوا منها حتى شبعوا وزاد عن حاجتهم ، كذلك معجزة الشويهة الصغيرة التي شواها جابر بن عبد الله ليأكلها الرسول ﷺ حين انصرافه من حفر الخندق ، فذهب معه ودعا كل أهل الخندق فأكلوا كلهم حتى شبعوا . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ، ج٣، ص١٦٠ .

وقضى علام الغيوب ،
أن الغالب هو المغلوب ..
يا لحكمة العجيب !

ثم هبت ريح صرصر ،
اقتلعت كل الشجر ،
وخيام هؤلاء البشر ..[1]

فصارت في الهواء جذاذات ،
وصار الكفار كفتات ..
إنها ريح كسياط موجعات .

وحان حساب الملاعين ،
اليهود المفسدين ،
فجاؤا راكعين ..[2]

الأحزاب ما أعظمها ،
إنها معجزة كبرى ،
إنها معجزة كبرى ..

---

(١) يروى أن الله عز وجل أرسل على الأحزاب ريحا في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ، ج٣، ص١٦٨ .

(٢) لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح !، والله ما وضعناه فاخرج إليهم ، قال ﷺ : فإلى أين ؟ قال : ها هنا ، وأشار إلى يهود بني قريظة . وكانوا مع الأحزاب ، فخرج إليهم الرسول ﷺ وحاصرهم خمسة عشر يوما أو خمسة وعشرين يوما حتى استسلموا ، فقتلوا وسبي منهم كثير . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ، ج٣، ص١٧١ .

نحو الفتح المبين

(٣٩)

الآن يبدأ عهد جديد ، فيه صلح وسياسة ،
فالإسلام له في السياسة كياسة ..
له غزو ، وفتح ، ليبسط الأمان على الأنام ،
وجهاد لهداية الناس إلى طريق الإسلام ..
تطهير الكعبة له طريق وحيد مبين قويم ،
هو طريق الروح ، وهدم الأصنام .
قد توجه المسلمون نحو مكة مسالمين ، تلك أول خطوة ،
ففتحها لا يكون بالحرب .. إنها مكة ..
فخرجت قافلة من ألف وخمسمائة من الصحابة ،
وطلبوا الطواف حول الكعبة ..
«يا أهل قريش سالمونا ولا تقاتلونا ،
ولا تثريب عليكم ، ما عدا الشرك بربنا!»
فقالت قريش: «ويظن الناس أننا أرغمنا ،
لنتعاهد عشر سنين وتطوفون العام القادم ، ذلك ردنا!»[١]

(١) في أخر السنة السادسة للهجرة ، خرج رسول الله ﷺ في جمع من صحابته بلغوا ألفا وأربعمائة، يريد مكة معتمرا ، دون قتال ، فلما علمت قريش بذلك تأهبوا للقتال وخرجوا معهم العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، فسلك الرسول ﷺ وصحابته شعبا أخر يؤدي إلى مكة غير الشعب التي خرجت فيها قريش ، ومضوا حتى بركت ناقة رسول الله ﷺ إذ أدركها ما أدرك الفيل ، فنزل هناك المسلمون ، فجاء وفد من قريش للتفاوض معه ﷺ فأخبرهم بما أراد ، ورجعوا إلى قريش فأخبروهم الخبر ، فلم تقبل قريش ، وقالت : إن كان لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدث بذلك العرب . انظر : ابن هشام (نفسه) ص٢٣١- ٢٣٢ .

وكانت المعاهدة : «هذا ما عاهد عليه رسول الله ﷺ»
قالوا : «امحها» قال الصحابي: «كيف أمحو اسم رسول الله؟»
فمحاها الرسول بيده ، إنه الصبر الجميل ..[1]
ومفتاح الكعبة هو الصبر الجميل ..

ومضى إليهم بالعهد «عثمان» فحبسوه في مكة ،
وخشي عليه الصحابة فتبايعوا بيعة ،
تحت الشجرة : «سنحارب حتى آخر قطرة ،
ولتتكلم السيوف والرماح حتى نخلصه»[2]
وشاع الخبر في الصحراء ، إنها الحرب ،
فأطلق الكفار «عثمان» وتملكهم الرعب ..

إن بيعة الرضوان ، أساس جديد للإيمان ،
وروح لصف واحد كأنه البنيان ..

(١) لما اتفق الرسول ﷺ مع قريش على صلح الحدبية ، أرسلت قريش سهيل بن عمرو ممثلا عنهم لكتابة كتاب الصلح ، فدعا الرسول ﷺ كاتبه – ويقال إنه علي بن أبي طالب – وقال ﷺ اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللهم، فرفض المسلمون ، فقال الرسول : أكتب باسمك اللهم ، ثم قال ﷺ : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : والله لو نعلم إنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله» ، فأمر الرسول ﷺ عليًا أن يمحوها ، فقال عليّ: لا أمحوها ، فقال رسول الله ﷺ : ارني مكانها ، فأراه مكانها فمحاها . انظر : ابن هشام (نفسه) ص٢٣٦ .

(٢) كان رسول الله ﷺ قد أرسل «عثمان بن عفان» إلى قريش ليبلغ أشرافها سبب مقدم الرسول ﷺ إلى مكة ، فاحتبسته قريش عندها ، وبلغ الرسول ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل، فقال الرسول ﷺ : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فلما علمت قريش بذلك أطلقت عثمان بن عفان . انظر : ابن هشام (نفسه) ص٢٣٥.

إنهم ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾ [١]

و «الحج عرفة» ذلك إسلامهم .. [٢]

(١) سورة الفتح آية ١٠.

(٢) حديث شريف .

خيبر

(٤٠)

أبواب خيبر من حديد ،
حصون مارد مريد ..
فتحُها منال بعيد!

تلك الحصون ، كيف دخولها؟
وتلك الأبواب كيف اقتحامها؟
لا طاقة للعقل والقوة بها!

فأجمع «علي» قوته لها ،
وفتح أبوابها ،
واقتحم حصونها ..

اقتلع أقفالها ،
وحطم سلاسلها ،
ودمر أبوابها ..

وخرج قومها كبغاث الطير ،
أمام «علي» ذي الشأن الكبير ،
يرفعون راية المغلوب الكسير ..(١)

---

(١) كانت غزوة خيبر في أواخر المحرم للسنة السابعة من الهجرة ، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع تقع على بعد مائة ميل شمال المدينة جهة الشام ، وكان الرسول ﷺ قد بلغها بالليل ، فلما رآه عمال خيبر وقد خرجوا بمساحيهم وفؤوسهم ومكاتلهم يقصدون مزارعهم ولّوا هاربين. فدخلها رسول الله ﷺ وقد تحصن اليهود بحصونهم . وأخذ المسلمون يفتحونها ، وكانت بعض =

خيبر آخر بقية ،
في الحجاز لليهودية ،
وبعدها تاهوا في البرية ..

اليهود هم السم ، لا مرية ..
قدمت للرسول الطعام يهودية ،
شاة مسمومة مصلية ..

أخذ قطعة ولاكها ،
لكنه ما استساغها ،
فقال : السم بها ..[1]

سيقولون معتذرين :
«السم في دمها لا يبين ،
وما نحن من القاتلين!»

=

الحصون قد استعصت ، فأرسل رسول الله ﷺ أبا بكر فرجع ولم يفتح ، ثم أرسل عمر بن الخطاب ، فرجع ولم يفتح ، فأرسل عليا بن أبي طالب فتم له فتحها .
انظر : ابن هشام (نفسه) ص٢٥٠ .

(١) تذكر كتب السيرة أن الرسول ﷺ بعد أن تم له فتح خيبر وصالح أهلها ، أهدت له زينب بنت الحارث إمرأة سلام بن مشكم شاة مصلية ، وكانت قد سألت : أي عضو من الشاه أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقالوا لها : الذراع ، فأكرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاه وجاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور ، قد أخذ منها كما اخذ الرسول ﷺ ، فأما بشر فأساغها وأما الرسول ﷺ فلفظها ، ثم قال ﷺ: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال ﷺ : ما حملك على ذلك ؟ قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيخبر . فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ، ومات بشر من أكلته .
انظر: د/ محمد سعيد رمضان البوطي (فقه السيرة) ص٢٥٧ .

إن خيبر من الخائنين ،
لخير الأنبياء والمرسلين ،
وهو على ذلك من الشاهدين ..

البلاغ

(٤١)

بعد خيبر ، جاء اليسر ،
ولم يعد في الأمر عسر ..
المسلمون
في صعود ،
يرسلون
الوفود..[(١)]
بعد سنة كاملة ،
يؤدون العمرة ..
الله الأحد ،
الكل له عبد
وتكبير ،
وتلبية ..[(٢)]
وأرسلت الوفود داعية
في كل صوب وناحية .

---

(١) في العام السابع للهجرة بدأ رسول الله ﷺ يبعث السرايا من أصحابه إلى مختلف قبائل الأعراب المنتشرة في الجزيرة العربية ، كما بدأ يبعث الكتب إلى مختلف ملوك العالم يدعوها إلى الإسلام ، فبعث إلى النجاشي وبعث إلى هرقل ملك الروم وبعث إلى كسرى .
انظر: ابن سعد (الطبقات) ج٢، ص٢٣ .

(٢) يقصد عمرة القضاء ، وكانت في ذي القعدة الذي جاء بعد رجوعه ﷺ من خيبر ، وقد أداها الرسول ﷺ في نحو ألفين من أصحابه ، مكان عمرته التي صده الكفار عنها في العام السابق .
انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ن ج٤، ص٢٨١ .

هلم اسلموا!

اسلموا تسلموا!

ذلك النهج القويم ،

والصراط المستقيم ..

قتل شرحبيل ، وكافر الروم،

سفير النبي معصوم .

الآن العدة لمؤتة ..

وبعدها

آخر كلمة ..[1]

(١) يروى أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤته عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره ، فاشتد ذلك عليه ، وندب الناس نأسرعوا وعسكروا بالجرف وهم ثلاثة آلاف ، وخرجوا إلى مؤتة للقاء الروم. انظر: ابن سعد (الطبقات) ج٢، ص٩٢ .

مؤتة

(٤٢)

ما كان في مؤتة من حرب ،
هو أول مواجهة بين الشرق والغرب .
قد بلغ القمرُ برجه ،
كما تجاوز أفقه ..
ما كان في مؤته من حرب .

في اليمين الإسلام ، وفي اليسار الأروام ،
الكفر مائة ألف ، وقليلٌ الإسلام ..[١]
راية الكفر هذه المرة هي الصليب ،
إنه لأمر مفزع رهيب ..
في اليمين الإسلام ، وفي اليسار الأروام .

استشهد «زيد» و«عبد الله» و«جعفر»[٢]
القواد الثلاثة ، الواحد بعد الأخر ..

---

(١) تذكر كتب السيرة أن عدد جيش المسلمين كان ثلاثة آلاف ، وعدد جيش الروم ومن والاهم من كفار العرب نحو مائتي ألف . انظر : ابن هشام (السيرة النبوية) ، ج٤، ص٢٨٥ .

(٢) كان رسول الله ﷺ قد جعل على رأس جيش المسلمين زيد بن حارثة ، وقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ، فلما وقعت الحرب استشهد زيد ابن حارثه ، فتلاه جعفر بن أبي طالب ، فاستشهد جعفر بن أبي طالب ، فتلاه عبد الله بن رواحه ، فاستشهد عبد الله بن رواحة ، تلاه خالد بن الوليد .
انظر : ابن هشام (نفسه) ، ص٢٨٨ .

فتشاور فيما بينهم الجنود ،
استشهد «زيد» و«عبد الله» و«جعفر»

خالد ، خالد، نموذج للقائد ،
غيَّر الميمنة والميسرة ،
فألقى الرعب في قلوب الكفرة ،
وعاد يرفع الهلال راية ..
خالد ، خالد، نموذج للقائد ..[1]

(١) لما أخذ خالد بن الوليد اللواء بعد استشهاد أصحابه ، وهزيمة المسلمين ، غيّر هيأة العسكر فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ليتوهم العدو أن مدداً قد جاء المسلمين ، ثم حمل على الأعداء فولوا فلم يتبعهم . ورأى الرجوع بالمسلمين هو الغنيمة الكبرى . انظر : د/ محمد سعيد رمضان البوطي (المرجع السابق) ص٢٧٣ .

إلى مكة

(٤٣)

مكة تلفها الظلمات ،
غارقة في سبات .
برهة ثم تلألأت أنوار ،
الجبل كله نار !.
عشرة آلاف حريق في الجبل ،
جعلت قريشا في خوف ووجل ..[١]

قالوا : قد نقضنا عهدنا ،
وذلك سبب كربنا!
لقد أخذنا على غرة!
والآن تمرغ الجبهة!.
اذهب يا أبا سفيان
اطلب لنا العفو والأمان![٢]

أبو سفيان الآن في دهشة ،

(١) يشير بذلك إلى ما كان من أمر رسول الله ﷺ لأصحابه بان يشعل كل واحد منهم نارا ، وكانوا عشرة آلاف ، فإذا هم بنيران عظيمة ، أدخلت الرعب في قلوب كفار مكة . انظر : ابن سعد (نفسه) ص٩٧ .

(٢) من بين الأسباب التي أدت إلى فتح مكة أن قريشا نقضت عهدها مع الرسول ﷺ في صلح الحديبية وقتلت عشرين رجلا من بني خزاعة ، فغضب لذلك الرسول ﷺ وأقسم لينصر في خزاعة ، وندمت قريش على ذلك ، وأرسلت أبا سفيان بن حرب يطلب العفو من الرسول ﷺ فأبى . انظر : ابن سعد (نفسه) ص٩٧ .

قيل له : «أعلن الشهادة!»
إن وقتها قد حان ..
ولقريش الأمان .
ومع «العباس» أقام ،
لتمر عليه جيوش الإسلام .[1]

فصاح أبو سفيان من دهشته :
ما هذا المُلك والقوة؟!
فأجابه العباس من فوره :
إنما هي النبوة ..
إثنا عشر ألفا من الصحابة ،[2]
كأنهم سيول دافقة ..

حبيب الله أمرهم :
لا تريقوا دماؤهم .
وحين تنفس الصباح ،
نادى المنادى وصاح :
الأمان لمن آمن بالله ..

---

(١) لما جاء أبو سفيان يطلب الأمان للمرة الثانية ، عرض عليه الرسول ﷺ الإسلام ، فتردد ، فقال له العباس : ويحك أسلم ، فأسلم ، وقد أوعز الرسول ﷺ إلى العباس أن يحبس أبا سفيان حتى تمر به جنود الله فيراها ، فهاله ما رأى .
د/ محمد سعيد رمضان البوطي (فقه السيرة) ص٢٧٧- ٢٧٨ .

(٢) كان عدد جيش لمسلمين في فتح مكة عشرة آلاف ، والعدد الذي ذكره الشاعر تعوزه الدقة .

أسلموا .. أسلموا لله ..[1]

فأقبلت القبائل تهدر ،
في صوت واحد : الله أكبر!
والرسول فوق البعير ،
منحنيا .. الله يشكر ..
وقريش أمام الكعبة ،
مُنحت العفو والرحمة ..[2]

---

(١) يقصد أبا سفيان ، فقد أسرع حتى دخل مكة قبل أن يصلها رسول الله ﷺ ، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه عليه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن .
انظر : ابن هشام (نفسه) ص٣٠٨ .

(٢) يروى أن رسول الله ﷺ حين فتح الله له مكة دخلها على راحلته وهو يضع رأسه تواضعا لله، حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل .. ثم أقام بباب الكعبة فخطب في الناس ، وكان مما قاله لهم : يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا : خيرا ، أخٌ كريم وابن أخ كريم ، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء . انظر : ابن هشام (نفسه) ص٣٠٨- ٣١٤ .

الفتح المبين

(٤٤)

له المدح!

وله الفتح!

في يوم فتح مكة ،

قريش أمام الكعبة محتشدة ..

لم يشمل العفو منها أربعة عشر ،

من بينهم قاتل حمزة الغادر ،

وهند ماضغة كبد «حمزة»[(١)]

ثم ارتفع آذان الروح من فوق الكعبة ..

من المؤذن؟ إنه العبد السابق بلال ..

وفي القلوب سؤال :

ماذا يفعل بنا؟

من يخبرنا؟

إنه العفو والمغفرة ،

لكل الناس سواسية ،

وللقبيلة الظالمة ،

---

(١) تذكر كتب السيرة أن الرسول ﷺ أمر قادة جيوشه يوم فتح مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا ستة رجال وأربع نسوة أمر بقتلهم حيثما وجدوا ، وهم : عكرمة بن أبي جهل ، وهبار بن الأسود ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ومقيس بن صبابة الليثي ، والحويرث بن نقيد ، وعبد الله بن هلال ، وهند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمرو بن هشام ، وفرتني وقرينة كانتا جاريتين تتغنيان دائما بهجاء الرسول ﷺ . انظر : ابن هشام (نفسه) ص٣١٢ .

حتى هند المتوحشة!.
قد أمر الله بالعفو عنهم أجمعين ،
فمن يحنو على الإنسانية غير النبي الأمين؟
ثم دخل الرسول الكعبة وبيده عود ،
يطعن به الأصنام ويبيد ..
ثلاثمائة وستون صنما كانت تعبد ..
فأين هبل ، ربهم الأمجد؟!.[١]
له الفتح!
وله المدح!

(١) بعد أن أنعم الله على رسوله ﷺ بالفتح ، طاف بالبيت على راحلته ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل كلما مر بصنم منها يشير إليه بقضيب في يده ويقول : «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» ، فيقع الصنم لوجهه ، وكان أعظمها هبل .
ابن سعد: (الطبقات) ج٢، ص٩٨، ٩٩ .

حُنين والطائف وتبوك

(٤٥)

حُنين والطائف وتبوك ثلاث غزوات أخيرة ،
كانت على المسلمين جد عسيرة ..
قيل للكفار عن شرككم أقلعوا ،
وبيد الإسلام استمسكوا!.

صحابة الرسول تملكهم العجب ،
وظنوا أن الإسلام ما عاد يُغلب!
ولا يعلم الغيب إلا الله ،
ذلك ما أكدت حُنين معناه ..

فصال المشركون وجالوا في أول المعركة ،
وتفاخروا ، وظنوا أنهم ألحقوا الهزيمة ..
فر المسلمون ، ثم تجمعوا وحمي القتال ،
وأحرز النصر ثباتُ الرسول ..[1]
الطائف بأسوار عالية محصنة ،

---

(١) أوغر فتح مكة قلوب هوازن وثقيف ، فحشدوا حشودا كبيرة ، وجمع أمرهم مالك بن عوف سيد هوازن . وأمرهم فجاؤا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم ، حتى يجد كل منهم ما يحبسهم عن الفرار . فخرج إليهم رسول الله ﷺ لست ليال خلون من شوال في إثنى عشر ألفا من المسلمين . فقال أبو بكر : لا نغلب اليوم من قلة . وكان مالك بن عوف قد عبأ أصحابه في وادي حنين . وأوعز إليهم أن يحملوا على الرسول ﷺ وأصحابه حملة واحدة . فاستقبلوا المسلمين في غبش الصبح ورموهم بالنبل من كل جانب ، ففر المسلمون هاربين ، وكان الرسول ﷺ ينادي فيهم : «أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب» . فتجمعوا حوله ، وقاتلوا حتى كتب الله لهم النصر على عدوهم ، فولوا هاربين ، وتبعهم المسلمون يغنمون .
- ابن سعد : نفسه ص١٠٨- ١٠٩ .

لا تجدي معها حرب أو محاصرة ..
فرأى الرسول العودة والمتاركة ،
لكن الصحابة آثروا المحاربة ..[1]

أخذت قريش من الغنائم النصيب الأكبر ،
فقالت الأنصار : النبي قومه يؤثر!
فقال الرسول : «بحسبكم أني لكم ،
ففاضلوا بين مال الدنيا ونبيكم ..»[2]

أما تبوك: فعشرة آلاف فارس ، وثلاثون ألف راجل ،
ففر جيش الكفار والروم ، ولم يقاتل ..[3]
وغدا الإسلام ينتشر بين البشر ،
وينتشر .. كذلك الأمر ..

---

(١) لما فرت هوازن وثقيف وتحصنوا بحصونهم ، تبعهم المسلمون وحاصروهم . فرأى الرسول ﷺ العودة ورفع الحصار ، لكن الصحابة رفضوا وفضلوا الحرب ، فأصابهم من نبل الكفار ورماحهم ما أوجعهم ، فوافقوا على العودة ورفع الحصار . - ابن سعد : نفسه ص١١٠ .

(٢) أصل ذلك الخبر أن رسول الله ﷺ لما وزع غنائم حُنين خص المؤلفة قلوبهم وهم أهل مكة بمزيد من الغنائم والأعطيات ، يتألف قلوبهم على الإسلام ، فغضب الأنصار لذلك ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال لهم : «ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟..» . د/ محمد سعيد رمضان البوطي: (المرجع السابق) ص٣٠٠- ٣٠١.

(٣) كانت غزوة تبوك في شهر رجب سنة تسع من الهجرة ، وسببها أن المسلمين بلغهم أن الروم قد جمعت جموعا ، واجلبت إلى جانبها لخم وجزام وغيرهم من نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرة الروم ، فندب الرسول ﷺ المسلمين إلى الخروج ، وهي الغزوة الوحيدة التي صرح بها الرسول ﷺ فخرج في ثلاثين ألف رجل بعد ما تخلف بعض المنافقين والمخلفين من الأعراب وبعض المعسرين من الصحابة ، وكان الزمان زمان حر وجدب ، فلما وصل الرسول ﷺ وصحابته إلى تبوك لم يجدوا هناك كيدا ولا قتالا ، فقد اختفى وتفرق أولئك الذين كانوا قد تجمعوا للقتال ، وجاء زعماء الروم فصالحهم رسول الله ﷺ على الجزية وكتب لهم كتابا بذلك . - ابن هشام (نفسه) ص٣٧٩، ٣٨٧.

الجهاد الأكبر

(٤٦)

رجع المسلمون من حروبهم المظفرة ،
فوق جيادهم الأصيلة المطهمة ..
رجعوا من الحرب مظفرين في يسر ،
وهم يسألون : أي الجهاد أكبر؟
الحروب الدنيوية وسيلة لغاية خاصة ،
وهناك جهاد آخر ، فمن يعرفه؟
فقدح زناد فكرهم كلُ الصحابة ،
ثم قالوا : الجواب عندك يا صاحب الرسالة!
فقال : «هو جهاد المرء نفسه»[(١)]
فيتحكم في زمامها بكل قوته ،
ليست الحرب أنك مع ملايين البشر تحاربها ..
فعدوك في قلبك ، فروض نفسك .. روضها ..
ومحاصرتها هي كل العمل .. ذلك فاعلم ،
فهي عقبة أمام نور الله . فاهدم الصنم [(٢)]
النفس ، قلعة موصدة ، ومنطقة محصنة ،
مهما أزحت التراب عنها ، وجدتها غامضة .
إنها صقر ذو مائة رأس ، وباز ذو ألف مخلب ،

---

(١) إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ حين قال لأصحابه عند رجوعهم من غزوة «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال ﷺ: جهاد النفس .

(٢) في تشبيه النفس بالصنم ، نفَس من أنفاس المتصوفة .

كأنها دمية رهيبة ، بالروح تحتجب ..
قتيل حرب الظاهر ، شهيد مع الأحياء ،
وقتيل حرب الباطن ، ولي مع الأموات قبل العفاء ..
طريق علم النبوة هو الباطن ،
ففيه سر الكائنات والإنسان .
رجعوا فوق جياد أصيلة ، ألوانها تبهر ،
رجعوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

المعجزة

(٤٧)

هل طرحت «لماذا» و«كيف» أتذكر؟!
وتركت العقل في مخدعه يبحث عن السر ويفكر!.
المعجزة في عقل المؤمن لها تصور ،
إنها بمقياس الروح ، حق ، وجمال ، وخير ..
فالمؤمن يرى بنور الله في قلبه ،[١]
وإن ضل عنه ضاعت فضيلته ..
رفع إصبعه الطاهرة نحو السماء ، فانشق القمر ،
وبلمسة منه تفتت جلمود الصخر ..
وتدفق الماء من الأرض لما مسها سهمه ،
وبورك في الطعام القليل لما قال «بسم الله»[٢]
المعجزة شيء لا يتم بحسبان ..
فصفد عقلك الأعمى بين قضبان ..
وتعال لتراها صافية كالنور في الظلام ،
غير خاضعة للعقل والنظام ..[٣]
كل شيء فيه معجزة بلا استثناء ،
فالدعاء الخافت ، حبل يطوي الفضاء ..

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف :«اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله» .

(٢) المعجزات الذي ذكرها الشاعر هنا ، وهي القرآن، وانشقاق القمر، وانبجاس الماء من الأرض، وتفتت الصخر ، والبركة في الطعام القليل ، ثابتة كلها في الصحيحين وكتب السيرة والمغازي .

(٣) يقصد أن المعجزة خارج إدراك العقل ولا يحكمها قانون أو منطق .

القدم خاتم الخلاص ، واللسان مجرى القرآن ،
بالمعجزة خلقنا ، وبالمعجزة كان للعالم تكوين ..
وعندما كانت ثمرة العقل الفاسدة ترقد في الطين ،
كان أبو بكر يضرب المثل في الإيمان واليقين ..
ففي يوم المعراج أحاط الكفار به ،
ليسمعوا في المسألة رأيه
يزعم أنه أسري به هناك ، وخالط الملائكة ،
وأنه ارتقى سبع سماوات ، وقابل الله! ..
فكان رده لا يدركه عقل ، قال : حق!
إن كان قال ذلك لقد صدق [1]

(١) يقصد أن أبا بكر الصديق ضرب المثل الأعلى في التصديق بالمعجزة ، فلما كذّب الكفار رسول الله ﷺ حين حدثهم عن الإسراء والمعراج ، ذهبوا إلى أبي بكر ، رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه ، فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق إني لأصدقه على أبعد من ذلك .
د/ عبد الحليم محمود (سيرة الرسول ﷺ) ص١٦٦ .

الصفة الشريفة

(٤٨)

هو في العشيرة والنسب أصيل ،
ينتهي نسبه إلى إبراهيم الخليل ..
ليس في نسبه نقص أو زيادة ،
فهو شريف في البعد والقرابة ..
وجهه بين الأبيض والأسمر ،
وشعره أسود منير ..
شفتاه منظومتان كالشِعر ،
وأنفه به تقويس لا يظهر ..
عيناه سوادهما داكن ،
ولحيته كثيفة كلحن ..
الله لوجهه هو المصور ،
ليكون بالمحبة الإلهية أجدر ..
أسنانه منضودة مستوية ،
كأنها ضوء نور متلألئة ..
أي خطوط تلك ، أي ألوان؟!
إنها روح الخطوط والألوان ..
جلده نسيج من حرير ،
ليس فيه تكوير .
وما مست يده شيئا ،
إلا بقت رائحتها فيه أبدا ..

يقول صحابي : إذا نظرت إليه ،
فإنك لا تستطيع التحديق فيه
النظر إليه لا يكون تحديقا ،
كان التحديق فيه تحريقا ..(1)

(1) كان مما ذكره أنس بن مالك من صفة رسول الله ﷺ : (أنه كان ربعة ليس بالقصير ولا الطويل، أزهر ليس بالآدم ولا الأبيض الأمهق ، رجل الشعر ليس بالبسط ولا بالجعد القطط ، وما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ﷺ) .. كما وصفه عليّ بن أبي طالب فقال: (في وجهه تدوير أبيض ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد) ، وكان مما وصفه به هند ابن أبي هالة قوله : (كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، خلج الأسنان ..)
- ابن الجوزي : صفة الصفوة ، ج١، ص٥٦- ٦١ .

السَكِينَة

(٤٩)

نطقه موزون ،
وحديثه مبين ..
إنَّ له خطابة ،
غاية في الفصاحة .
الإنس والجن له يسمعون ،
ويطرقون ، ويخشعون ،
والصحابة الأبرار ،
كأن فوق رؤوسهم أطيار [(١)]
قد توقف خفق القلوب ،
إنه لطير مهيب ..
كأنما الزمان توقف مكانه ،
وتدفق السيل في جريانه ..
إنها منزلة في الحكمة ،
معجزة خارقة ..
خالدة إلى يوم الدين ،
فاكتبوا ما تكتبون!
كل شيء بها موصول ،

---

(١) كان رسول الله ﷺ إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير .
- ابن الجوزي : نفسه ، ص٦٣ .

سواء الفروع والأصول .
هي للحب نظام ،
له حدود وأحكام .
ماذا تقول عن تلك السكينة ،
هاتيك الجبة الفارغة ؟
أجل .. حب ورحمة ،
وندم ، وثورة ..
حتى السيوف في الملحمة ،
هي من صميم المرحمة ..
إن كان الزاد لا يكفيكم ،
فتزودا من تقواكم ..
اجعلوا تلك السكينة أسوتكم ،
في الخطب فوق منابركم .
يا لزيف العزاء ،
للعقول الخرقاء!
تسأل عن سر أم دفر .[1]
وجدوى الحرب والشر!
والكل عظام ورفات ،
في قبور مزخرفات .
وما الحياة إلا خيط دخان ،
وكالكتابة فوق الماء كل نشان .

---

(١) أم دفر هي «الدنيا» .

عن سر تلك السكينة ،
للحانات خشوع وطهارة ..
الكون ينتظر الميلاد ،
فكنَّ يا حوامل على استعداد!
وهيا تعالين مقبلات ،
على السكينة أيتها القابلات ..

الصحابة

(٥٠)

كل من نظر إلى الرسول نظرة ،
أو نظر إليه الرسول ذات مرة ..
هو الصحابي .. في قلبه منقوش ،
نسيج من نوره مرقوش .

وأربعة في سمت بهي علوي ،
أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ .
كلهم طهرتهم نفس النار ،
وتفاوتت أحوالهم والأقدار .

أربع منارات للهدى في قلبها نوره ،
الرحمة ، والعدل ، والأدب ، والحكمة ..[1]
ففي أي عظيم من البشر اجتمعت ،
تلك الشمائل العظمى وانطبعت؟

أربعتهم للرفعة استوفى ،
فهم منارات تشع هدى ..
وبنورهم بسطوا السلام ،

(١) يشبه أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ﷺ بأربع منارات يتوسطها نور الرسول ﷺ ، فأما أبو بكر فكان منارة للرحمة ، وأما عمر فكان منارة للعدل ، وأما عثمان فكان منارة للأدب ، وأما عليّ فكان منارة للحكمة .

وعليه اللبلاب قام ..

صحابة الرسول كثيرون ،
أوائلهم مبشرون والآخرون .
بخاتم من نار اكتوت قلوبهم ،
وبالحق والحب والشوق ما ألوعهم ..

ونحن اليوم في تاريخ الأمة ،
أحجار مركومة بالنسبة للصحابة ..
«فالغبار الذي يثيره جواد الصحابي ،
أفضل من أكبر ولي ... »[1]

---

(١) التشبيه الذي في المصراعين الأخيرين منسوب إلى عبد الله بن المبارك (المؤلف) .

أزواجه وآل البيت

(٥١)

أزواج النبي الطاهرات ،
لا تراهن عين .. هيهات ..
هن دراري مكنونات ..

قانتات ، مختمرات ،
صالحات ، مطيعات ،
فاضلات ، عابدات ..

على رأسهن عائشة ،
محبوبة كيسة ،
عاقلة راشدة ..

للحديث حافظة ،
وعن النبي راوية ،
فطنة ، مفكرة ..

وآل بيت النبي ،
وردتان : الحسن والحسين
وفاطمة وعلي ..

فاطمة ما أتقاها ،
قد كان كفنها ،

أبهى عرس لها .

الحسن والحسين يا لشبابهما
المحطة الأخيرة عندهما ..
طريق العبور يؤدي إليهما .

إنهما الحفيدان الشهيدان ،
ارتقيا في السماء كل عنان ،
فهما في العرش منارتان .

القرآن والحديث

(٥٢)

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟
بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[1]
فأنى لهم الدخول من باب تلك الأسرار؟!
ولو حاد الوحي عن طريقه :
﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ
لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[2]
الجبال منه كالعهن المنفوش ، وتخر الأحجار خاشعة ..
لو شاء أن يخفي
من أين نزل الوحي ،
فهو بلا شك ليس بكلام البشر ..
القرآن غير مخلوق ،
وحرفه دقيق عميق .
إنه نور لا تحويه لغة ، وما اتسعت له العربية ،
لكن كلام الله لما نزل على العربية ، جعلها ربانية .
القرآن العظيم ،
له جِدة لا تبلى ،

---

(١) الإسراء آية ٨٨ .

(٢) الحشر آية ٢١ .

ونظام لا يمحى ، وأسرار لا تحصى .

لا يبلى على مر الدهور ، ولا يقدم على مر العصور ..

أما الحديث فكل أمره :

أنه للقرآن تتمة ..

كل الكمال أثر من سنته ،

فهو موطن الكمال ، والكوثر حوضه ..

حجة الوداع

(٦٠) [*]

ها هو ذا دولاب الزمان يعود إلى الوراء ،
وتنقلب كل جهات الأرض والسماء ،
التي لم تسمع من قبل ، ولن تسمع هذه الكلمة المعجزة ،
ولا ذاك الصوت البهي ، كأنه شمس غاربة ..
رسول الله يخطب في مائة ألف من الصحابة ،
تحلقوا حوله ، خلع عليهم الإسلام مهابة ..
إنه السر الأعظم : للزمان مهتمته ..
«لقد استدار الزمان دورته»[1]
بمعنى أن العالم حينئذ قد بلغ الذروة ،
في الإسلام ، والإيمان ، والإنسانية ،
والشرع القويم ، والسمو والحكمة ..

«القرآن لديكم أمانة ، لا شك ولا ريبة»[2]
«لو ولي عليكم عبد في أنفه حلقة ،

(*) القصائد من الثالثة والخمسين حتى التاسعة والخمسين هي ترجمة لمائة حديث شريف ، اختارها الشاعر من الحديث النبوي في موضوعات متفرقة ، وفي تقديري أنها تشكل انقطاعاً في تسلسل أحداث السيرة النبوية .

(١) إشارة إلى قوله ﷺ يوم حجة الوداع :(إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض) . - ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٤، ص٤٤٧ .

(٢) إشارة إلى قوله ﷺ في حجة الوداع :(تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه) . - ابن هشام : نفسه ، ص٤٤٧ .

فما دام صالحا وتقيا ، أطيعوا أمره»[١]

«لا فرق بين عربي وعجمي ، فالكل بشر»[٢]

أي فرق في الأرض ، فالكل من تراب؟

للجمال والقبح تفسير آخر عنده ..

«كل ما هو قبيح فإني أحرمه»

قطبان من الأوامر والنواهي ، والحلال والحرام ،

في الذروة لأعظم الأهرام ..

إنه مرشد أبان الحلال من الحرام ،

الحلال قصر في السماء ، والحرام سراب في الرغام ..

جاء فجعل العرب سافكي الدماء في براءة الغزلان ،

فلما صعد «سلوة السماء» عاد البهتان ..

إنه نَفَس يحيل ذرات الرمال قبابا عاليات القمم ،

وهو صوت يشق حجاب العدم .

رسول الله فوق القصواء ناقته ،

في لون الشمس الغاربة ، عذب بيانه .

مزج الأرض والسماء في بوتقة ،

وذروة الكمال في الدين تطوقه .

«اللهم هل بلغت» نعم! «اللهم فاشهد»[٣]

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ : (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة)، النووي : رياض الصالحين ، ص٢٥١ .

(٢) إشارة إلى قوله ﷺ :(كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)

(٣) إشارة إلى قوله ﷺ في نهاية خطبة الوداع : (ألا هل بلغت) فقال الصحابة : نعم ، فقال ﷺ : (اللهم فاشهد) .

ليعلن أصحابي الخبر لكل من لم يعلم ..
فتفكر الصحابة وعلى رأسهم «أبو بكر» ،
أحس من كلام الرسول معنى الخطر ..
فلما نزلت الآية ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾
أدرك «أبو بكر» أنه قد اقترب أجل الرسول ،
فاضت بالدمع عيناه ..
ما أطهر الطريق الممتد
بلون شمس الغاربة! .

ذلك اليوم

(٦١)

اشتدت حرارة الحمى بالرسول ،
فكان له من ماء القرب بلول .[١]
والمسلمون لمرضه في هَم وبلاء ،
مخافة موت خاتم الأنبياء .

وفجأة وقعت الفتنة بين المصلين ،
إذ خرج الرسول عليهم مريضا ممتقع اللون :
«أغلقوا كل الأبواب
ما عدا باب أبي بكر صاحبي»[٢]

«إنني عبد مثل سائر البشر ،
يحسب عمري بالسنة والشهر ،
ولن أؤخَّر لحظة إذا جاء أجلي ،
فلا خلود لي ، ولم يخلد أحد قبلي»
قالوا : «فاضل بين دنياك وربك ،

---

(١) لما اشتد المرض برسول الله ﷺ وهو يُمرض في بيت عائشة ، قال ﷺ : هريقوا عليّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس ، فأجلس في مخضب لحفصة زوجه ، ثم صبت عليه أزواجه حتى طفق يشير إليهن أن قد فعلن . شمس الدين الذهبي : تاريخ الإسلام ، ص٣٠٩ .

(٢) بعد صب الماء عليه ﷺ خرج إلى المسجد فصلى بالمسلمين وخطبهم ، وكان مما قاله : (انظروا هذه الأبواب في المسجد فسدوها إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم أن أحدا كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه). ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٢، ص٤٨٢ .

اختر أيهما .. واستفت قلبك!»

فقلت بكل إرادتي :

«اخترت ربي» على سجيتي ..[1]

«إن كنت قد ضربت ظهر أحد ،

فتلك ظهري فليضربني ..

وإن كنت قد أخذت من أحد درهما ،

فهذا مالي فليأخذ منه ..»[2]

«إنك موئل ذرية مباركة يا بنيتي ..

قد انتهى الأمر فانظري إلى حياتي ..

إنك ستكونين أول من يلحق بي ..»

فضحكت فاطمة بعد أن كانت تبكي ..[3]

رأسه فوق صدر عائشة ،

«في الرفيق الأعلى» آخر كلماته ..

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ وهو مريض : (إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله) . شمس الدين الذهبي : نفسه ، ص٣٠٩ .

(٢) روي أن الفضل بن عباس دخل على النبي ﷺ في مرضه فقال : يا فضل شد هذه العصابة على رأسي ، فشدها ، ثم قال النبي ﷺ : أرنا يدك! ، قال : فأخذ بيد النبي ﷺ ، قال ﷺ : إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم وإنما أنا بشر ، فأيما رجل كنت أصبت من عرضه شيئا فهذا عرضي فليقتص! وأيما رجل أصبت من بشره شيئا فهذا بشري فليقتص! وأيما رجل كنت قد أصبت من ماله شيئا فهذا مالي فليأخذ! .. ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٢، ص٢٥٥ .

(٣) دعا رسول الله ﷺ فاطمة ابنته في وجعه الذي توفى فيه فسارها بشيء فبكت ثم دعاها فسارها فضحكت . فسألتها عائشة عن ذلك فقالت : أخبرني رسول الله ﷺ أنه يقبض في وجعه هذا فبكيت ، ثم أخبرني أني أول أهله لحاقا به فضحكت . وقد توفيت السيدة فاطمة بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر . ابن سعد نفسه ، ص٢٤٧، ٣١٥ .

ثم فاضت روحه ، فارتفع البكاء والعويل ،
فها قد غربت شمس الأصيل[1]

كان ذلك يوم الاثنين ،[2]
كل الأحداث الجليلة تكون في ذلك اليوم .
من بعده صارت الدنيا ،
حسرة وغربة ونفيا ..

---

(١) كانت آخر كلمة قالها الرسول ﷺ وهو يحتضر «في الرفيق الأعلى» .
(٢) كانت وفاته ﷺ يوم الاثنين .

الله حي لا يموت

(٦٢)

لوحة من القيامة في مدينة الرسول ،
جمعت بستان النور ، لها انتشار وفضول .
شحذت قرائح الناس فتسابقت ،
فتلألأ النور ، والنجوم تصادمت ..
وتلاشى المكان ، والزمان هباء ،
وأشرق الضياء ، وانداحت الظلماء ..
وتعالت أنات الأسى تعلن وفاة الرسول ،
مات أول المخلوقات في الأزل ، وآخرها يوم الفصل ،
وصارت الأمور في بيت الرسول مذهلة ،
وهذا «عمر» يصيح شاهرا سيفه :
«من قال إن محمدا قد مات لأضربن عنقه !
سترون قريباً للنبي صولة !
إنه لم يمت ، بل رفعه الله ، ومحسومة عودته..
سيعود ويضرب أعناق المنافقين ! »
وجاء أبو بكر المرهف الرقيق ،
وأطفأ بكلامه هذا الحريق :
« إن الله لا يرضى عما تفعلون ..
أمحمداً تعبدون ، أم الله تعبدون ؟ !
إن كنتم تعبدون محمداً ، فإن محمداً قد مات

وإن كنتم تعبدون الله ، فإن الله حي لا يموت .. » [1]

يا لروعة إدراك السر والشفافية ،

ثم انظروا إلى تلك الكلمة :

« ذهب صفاء الدنيا ، وبقي الغم ! ،

ذهب وذهبت معه الحياة ، وبقي الجلد والعظم » .

(١) لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر في الناس خطيبا فقال : ألا لا أسمعن أحدا يقول إن محمدا قد مات ، فإن محمدا لم يمت ، ولكنه أرسل إلى ربه كما أرسل موسى فلبث في قومه أربعين ليلة ، إني لأرجو أن يقطع رسول الله ﷺ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات ، ثم أقبل أبو بكر حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمم رسول الله ﷺ وهو مسجى ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه يقبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت! طبت حيا وميتا ، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا! . ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس ، فأبى عمر أن يجلس ، فقال : اجلس ، فأبى أن يجلس . فتشهد أبو بكر ، فمال الناس إليه وتركوا عمر ، فقال: (أما بعد ، فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾) فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية إلا حين تلاها أبو بكر ، ونشج الناس يبكون . ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٢، ص٢٦٩- ٢٧٠ .

السلام

(٦٣)

هذا من السماء أخر إعلام :
الله أحد ، والدين الإسلام ..
لام ألف ، ألف لام .
عفوك يا مولاي!
السلام ، السلام!.

أنا المجنون ، وهو ليلاي ..
كربلاء حسرتي ،
وناره جلوتي ،
ودائمة ملامتي ..
السلام ، السلام!.

الفكر ابتلائي ،
والكلمة إلهامي ،
وصامت أنيني ،
بلا حرف أو كلام ،
السلام ، السلام!.

مصادر التعليقات ومراجعها

١) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ثلاثة أجزاء ، بيروت ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م .

٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي : كتاب صفة الصفوة ، جزءان ، حيدر أباد ١٣٥٥هـ .

٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ١٩٩١م .

٤) أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي : رياض الصالحين ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ١٩٧٩م .

٥) أبو محمد عبد الملك بن هشام المغافري : السيرة النبوية ، أربعة أجزاء ، دار التراث العربي ، د . ت .

٦) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء الأول ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩م .

٧) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، جزءان ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ .

٨) د/ عبد الحليم محمود : سيرة الرسول ﷺ ، القاهرة ، د . ت .

٩) القرآن الكريم .

١٠) لويس ماسينيون : كتاب الطواسين للحلاج ، باريس ، د . ت .

١١) د/ محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة ، ط٧ ، ١٩٧٨م .

- دوريات :

١) د/ أبو العلا عفيفي : نظريات الإسلاميين في الكلمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ٢ ، ج١، ط٢، ١٩٥٣م .

فهرس